

## القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٥٤-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم اقطاعات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري بلانتغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم مملكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية، دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا يمثّلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم، وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قارين للأراضي الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلما كانت إليانور، التي أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيما بعد سجينته التي لاحول لها ولاطول، وكان توماس بكت **Becket** في البداية المستشار المخلص للملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من الشخصيات الرئيسية.

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوييرغ المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو **Diceto** عميد كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي ١٢٠١.

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعد معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيره من أجل العدل، وظهر في كل خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيما الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ماتوا أحدهم عنه وبقي في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسلبوا هارين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندهش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساوئ الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغالباً إذا ما كان أي واحد من قضاته متراخياً أو خشناً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقدم علاجاً ملكياً، واصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديد، وقد أكسبته الحمد والثناء من قبل محبي الأمن وأجمت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغم الذئاب المفترسون على الفرار أو على التحول إلى شياه، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقة، فقد اضطروا خوفاً من القانون على السكون دونها إيذاء مع الشياه، وحل العمل بالمحراث محل العمل بالسيف، وأخذ مقص تقليم الأشجار مكان الرمح، ومامن أحد ربط نفسه الآن بأعمال القتال، بل تمتع بنعمة من الرب بمذاق السلم، الذي تطلعوا إليه وانتظروه طويلاً من قبل، وكان هذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بداية حكم هنري، ظهر توماس بكت وبرز في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فترز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعماله المبكرة.

علم الرب وقضى أن يكرس توماس المبارك [لخدمته] قبل أن يخرج من الرحم، وأظهر لأمه أي نوع من الرجال سيكون، ذلك أنها رأت في المنام أثناء حملها به أنها تحمل في رحمها جميع كنيسة كانتربري، وفي اللحظة التي رأى فيها الطفل ضوء النهار، حملته الوصيصة ورفعته بين يديها قائلة: « لقد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينما كان رضيعاً في المهد، حلمت أمه في إحدى الليالي أنها كانت توبخ المريضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها المريضة قائلة: « لا ياسيدي، لديه أفضل أغطية» وقالت لها السيدة: «أرينيها»، وجلبت المريضة الأغطية إليها وأرتها إياها، وعندما حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقالت لأمها: «إنها واسعة جداً لأستطيع مدها فوق الفراش»، وبناء عليه أجابتها

أمها: «تعالى إلى القاعة وافتحها هناك»، وبذلت الممرضة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطة إنني لأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «اذهبي إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فارغ، فلاشك أنك ستنجحي في مدها هناك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

«إن الغطاء واسع إلى حد أنني لأستطيع إيجاد نهايته، وأعتقد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها!».

لقد ولد توماس من زواج شرعي، ومن أبوين شريفين، وكان والده غلبرت في بعض الأحيان عمدة لندن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكونا ممن يربح المال عن طريق الربا، أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخليهما.

ويمكن لنا أن نستنتج أن والده تلقى بعض الاشارات العلوية فيما يتعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أن يذهب إلى روبرت رئيس ميرتون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الديني، وجاء في أحد الأيام أبوه لرؤيته، وعندما جلب الطفل إلى حضرة راعي الدير مع والده، قام الأب بالسجود أمامه متعبداً إياه، وغضب الراهب وقال والدهشة تعلوه: «ما الذي تفعله أيها الرجل الأحمق، أتسجد أمام قدمي ابنك؟ إن التمجيد الذي تفعله له، ينبغي بالحري أن يفعله لك»، ورد عليه الأب بصوت منخفض: «إنني أعلم يامولاي الذي أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى توماس سنوات طفولته، ثم عندما صار صبياً، وبعد ذلك عندما وصل سن البلوغ ببساطة في بيت أبيه وفي مدرسة المدينة، وعندما كان شاباً درس في باريس، وشارك بعد عودته في بعض شؤون مدينة لندن، حيث صار كاتباً ومحاسباً لدى عمدة المدينة، وخلال هذه

الوظائف وجه نفسه بطريقة جديدة بكل مديح، وحصل على معلومات عن العالم، لذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شؤون كنيسة انكلترا ورعاية مصالحها العامة مع شؤون المملكة ومشاكلها بحذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانات واعدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيوبولد، مما جعل الملك يتخذة مستشاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥، وأعطاه هذا مسؤولية الاشراف على الأعمال الديوانية لهنري، وكذلك نال دوراً في الادارة الملكية.

### سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيس الأساقفة ثيوبولد، وبناء على توصية من رئيس الأساقفة هذا، وبوساطته، وبتحريض أيضاً من هنري أوف بليوس، أسقف ونشستر، أخو الملك ستيفن، جعل توماس مستشار الملك، مؤثراً لياه على الآخرين، لكونه رجلاً يقظاً، وفاعلاً، وعى مسائل عظيمة في عقله، وكان مجرباً في عدد كبير من الأعمال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة وماقتضاه منه منصبه في سبيل شكر الرب ولصالح رخاء المملكة وتقديمها كلها، وكانت انجازاته كبيرة إلى حد يمكن للمرء أن يشك فيه: هل خدم هو الملك بتميز عظيم وكفاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامة أكثر في السلم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بربيع ثان، جاء بالفعل من خلال نشاط وآراء المستشار، ومن خلال التعاون المخلص لرجال الدين والاييرلات والبارونات، فقد جرى احترام الكنيسة المقدسة، وأضيفت المناصب

الشاغرة على الأساقفة ورعاة الدير وعلى رجال الدين الأمناء من دون رشوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملوك في أعماله الازدهار، فازدادت مملكة انكلترا في غناها، وانهمرت عليها البركات، ونبعت من نبع الخصب والكثرة، فقد زرعت التلال، وبذرت الوديان بالقمح، وامتألت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لندن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرها ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عندما كتب فتزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمة انكلترا، فقد أعاد فتزستيفن إلى الحياة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجد في كنيسة القديس بولص المقر الأسقفي، وقد كانت في إحدى المرات رئاسة أساقفة، واعتقد بعضهم أنها ستكون كذلك مرة أخرى، لولا أن لقب رئاسة الأساقفة للشهيد المبارك توماس، ولولا أن وجود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هو الآن، لكن بما أن القديس توماس جعل المدينتين ممجدين: لندن بولادته، وكانتربري بموته، فإن كل واحدة منهما يمكنها محقة ادعاء التقدم على الأخرى وذلك بالنسبة لاحترام ذلك القديس، وفيما يتعلق بممارسة العبادة المسيحية يوجد في لندن وفي ضواحيها ثلاث عشرة كنيسة دير عظيمة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعة بالاتين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمة جداً وحصينة: وقامت الأسوار على أساسات عميقة، وهي مثبتة بملاط مزج بدماء الحيوانات، ويوجد إلى الغرب قلعتان محصنتان تحصيناً عظيماً، ويمتد من هناك منها سور عملاق وكبير جداً له سبع بوابات مزدوجة، وأبراج على طول الجانب الشمالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لندن في إحدى المرات مسورة وقد استدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العملاق، والمليء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحر جرى ضد الفتحات التي وجدت في السور، ومع الأيام هدم هذه الأسوار، وفي أعلى المجرى النهري إلى الغرب هناك القصر الملكي لـ [وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرفاته الدفاعية وحصانته، وهو يبتعد حوالي الميّلين عن المدينة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كلّ مكان خارج هذه البيوت في الضواحي، وعلى مقربة منهم حدائق واسعة وجميلة عائدة إلى السكان، وقد زرعت هذه أيضاً بالأشجار، كما ويوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مرجية جميلة، يجري خلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طواحين تصدر أصواتاً مفرحة، ويقوم بالجوّار القريب غابة عظيمة، فيها مراعي حيث هناك مساكن حيوانات متوحشة مثل: الوعول، والأيل، والخنزير الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبة مليئة بالمزروعات، تنتج محاصيل ممتازة، وتملأ مخازن الفلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانب الشمالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القديس كلمنت، وهي آبار مشهورة ويتردد على زيارة هذه الآبار كثير من الناس، ويؤمنها عدد كبير من التلاميذ من المدارس، والشباب من المدينة وذلك عندما يذهبون في نزهات للاستمتاع بالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كل صباح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالإضافة إلى هذا يوجد في لندن على ضفاف النهر بين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والحانات العائدة لباعة الخمور حوانيت تقدم الأطعمة المطبوخة للناس، وهكذا يمكنك أن تجد الطعام تبعاً للموسم: من اللحوم المشوية والمقلية والمغلية، والأسماك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا ما حدث بشكل غير متوقع أن استقبل أحد السكان بعض الزوار المتعبين من سفرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا ما توجب عليهم الانتظار حتى جلب بعض الطعام الجديد لطبخه، أو حتى يجلب الخدم الخبز، أو الماء للاغتسال، إنهم يبادرون مسرعين إلى ضفة النهر فيجدون هناك كل ما يحتاجونه، ومهما كانت عظمة أعداد حشود الجند والرحالة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغادرتها، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، إنهم لن يصبوا كثيراً عن الطعام، ومثلهم الذين يخرجون من المدينة من دون عشاء، فلقد كان بإمكان كل إنسان تجديد نشاطه وانعاش نفسه بالطريقة التي يرغب بها، والذين يرغبون بتسلية أنفسهم بشكل مميز، لا يحتاجون للبحث حتى يجدوا سمك الحش أو طيور أفريقيا أو الكروان الآينوني، ذلك أن هذا المطبخ العام كان موائماً جداً للمدينة، وجزء من أجزاء خدماتها اللطيفة، ذلك أن الحكمة الموروثة عن أفلاطون قررت أن فن الطبخ هو تقليد لصنع الدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مباشرة خارج أحد الأبواب حقل منسبط ناعم [سمت فيلد] بالحقيقة والاسم، ويقام هناك خلال كل ستة أيام من أيام الأسبوع — مالم يعترض ذلك يوم عيد رئيسي — عرض شهير للخيل الجميلة للبيع، ويحضر هناك الأيرلات والبارونات والفرسان الذين يكونون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن ترى الخيل القصيرة والسريعة بألوانها اللامعة، وهي تجري في حلباتها في حركات رشيقة تضع خلالها حوافرها الأمامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للقيادة، وهي تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجدها هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الذين سيمتطون هذه الخيول السريعة أنفسهم للسباق، وقد يكون هؤلاء ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغي أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لذلك لا يمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر إشارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولا بد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كل شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: « لا توجد حركة ولا يوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنام ذات الأصواف، وتقف أيضاً أكاديش صالحة للفلاحة، بعضها كبير مع فلوه، ويتبع بعضها الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كل أمة تحت قبة السماء، ويجلب التجار بسرور بضائعهم بوساطة البحر، فالعرب يرسلون الذهب، والتوابل السبأية والبخور، ويجلب السكيزيون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلب رجال النروج وروسيا الفراء وجلود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خمورهم.

وبالنسبة للتاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مدينة روما، ومع أنهما تنحدران من الجدود التراجانيين، لقد تأسست من قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبل روميلوس وريموس، حيث ما برحوا يمتلكون الشرائع نفسها من أصلهم العام، وهذه المدينة مثل روما مقسمة إلى أقسام، ولها مجلس عمد سنوي بدلاً من المجالس، ولها تنظيم للسادة ومجالس ادارية أدنى، وتمتلك في شوارعها مجاري وقنوات مياه، وفيها أماكن محددة لسماع القضايا ولعرضها والحكم فيها، وفيها عدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة وأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعدة والضيافة للغرباء، وتؤكد أعمال الخطوبة، وتعقد الزيجات، وتحتفل بالأعراس، وتقيم الاحتفالات، وتحتفي بالضيوف، ويمكن أن نضيف أيضاً: تهتم بالجناز ويدفن الموتى، ومصائب لندن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقدم أن غالبية الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا هم

من أهل لندن ورجالها الأحرار، ويمتلك كل واحد منهم بيته الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيام الأعياد خلال الصيف في رياضات الرمي، والركض، والقفز، والمصارعة، ورمي الحجارة، وقذف الرماح إلى ما وراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هناك قبل كل يوم عيد تقريباً، وقبل الغداء، إما خنازير وحشية مسلحة بأنياب قاطعة تقاتل من أجل حياتها، أو من أجل لحمها، أو ثور قوي مع قرون مثينة للنطح، أو دبة كبيرة تترك لانشاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعندما تثور الزوابع العظيمة في الشمال، ويتجلد السور الشمالي من المدينة، ينطلق إلى هناك جماعات من الشباب للعب فوق الجليد، فبعضهم يركض بسرعة فائقة فوق الجليد وهو مفتوح الساقين أو يتزلج فوق كتلة كبيرة من الجليد، ويصنع آخرون مقاعد من كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشابكة نحو الأمام ويجرون المقعد خلفهم، وغالباً ما يندفعون بسرعة عظيمة إلى حد أنهم قد ينزلقون فينكبون جميعهم على وجوههم، ويضع آخرون أكثر براعة في رياضة الشتاء، على أقدامهم عظام الساق لبعض الحيوانات، ويربطوها بإحكام حول كعابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قذفت من آلة حرب، ويقوم في بعض الأحيان اثنان منهم، بناء على اتفاق ضد بعضهما من مسافة بعيدة جداً، وعندما يقتربان من بعضهما بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسدد كل واحد منهما على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحة جسيمة، لأنها عندما يسقطان تندفع أجسادهما إلى مسافة بعيدة عن بعضهما بفعل قوة ركضهما، وحيثما لامس الجليد رأسيهما، يكشط الجلد تماماً، وغالباً ما يحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا ماسقط الضحية مع عموده تحت خصمه، لكن أعماهم فيها جشع نحو الفخار، فالشباب يتشوقون إلى النصر، ويبارسون المباريات الخادعة من أجل تعويد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من الناس المتعة بالرياضة مع الطيور في الهواء، ومع الصخور والنسور والعقبان، ومع الكلاب التي تصطاد فريستها في الغابات، وامتلك السكان الحق بمطاردة الفرائس في مدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلتيرن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

وأنجبت هذه المدينة في العصور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطورة هيلينا (حنه)، وهو الذي منح روما وجميع الشارات الامبراطورية للرب وللقديس بطرس، وللبابا سلفستر، البابا الروماني [منحة قسطنطين]، فله فؤض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مادعي باسم الامبراطور، بل بات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الرومانية المقدسة»، وخشية منه أن ينزعج المولى البابا بضجيج الحياة المدنية وصراعاتها التي تحدث أثناء حضوره، آثر هو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبنى لنفسه مدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطورة ماتيلدا، والملك الشاب هنري بن هنري الثاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فترزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالد أوف ويلز، وفي نظرة نحو أخبار حوادث أيام هنري الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوتين تظهره في ذروة حقه وضغيفته.

عندما انقضت سنتا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه — مثله في مثل فرعون آخر — لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساويء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجهما، ذلك أن خيائته الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي لم تكن مع «وردة نقية» حسبما دعيت بشكل زائف وسميت، بل بالحري مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبما أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسيء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه (١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرفت إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيما وراء البحار، وكيف تصرفت لدى عودتها نحو زوجها الأول، ثم نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعثوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتها: الصقلية والسكسونية، توفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الثانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسة، أما فيما يتعلق بالآخرين: الفرع الاسباني والفرع الألماني، والفرع البريتاني، ستكون الأجيال المقبلة في وضع يمكنها من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيما بينهم، حيث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعروف أيضاً بشكل واضح أن ابنتها من الملك لويس ملك فرنسا: واحدة تزوجت من هنري كونت شامبين، وتزوجت الثانية من أخيه ثيوبولد كونت بليوس، وقد سقطتا مع ما أنجبتهما في فلسطين وفي بلاد الاغريق..

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قام من أجل مطامح دنيوية بأسر أبيه الطبيعي وتقييده بالأغلال، ثم كرر فعلته هذه مع أبيه الروحي — أعني بذلك البابا باسكال — وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطورية، وذهب للترهب في غربي بريطانيا، قرب تشستر، وعاش حياة قداسة وتوبة حتى موته، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجو، مع أن زوجها كان مايزال حياً، ورزق غيوفري منها بثلاثة أولاد، اثنان منهم توفيا بسرعة كبيرة وبترا وهما في ريعان الشباب على الرغم من الآمال العظيمة التي علقنا عليهما، وبدأ الثالث بشكل أفضل مما انتهى إليه.

ومجدداً، عندما كان غيوفري أوف أنجو كبير أمراء فرنسا، استفاد من الملكة إليانور، ولهذا السبب غالباً ما حذر ابنه هنري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسها، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مولاه، ولكونه قد عرفها هو نفسه شخصياً، وآخر هذه الآثار المرعبة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نام زانياً مع ملكة فرنسا المذكورة، وانتزعها من مولاه وزوجها

من نفسه، وإني أتساءل: كيف يمكن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غرار جيرالد أوف ويلز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتو **Diceto** بالكتابة حول الأحداث التاريخية بطريقة إيجابية، وقد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة ١١٥٥.

ولد الولد هنري في لندن لهنري ملك انكلترا والملكة إليانور في ٢٨ شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبرت عميد سالسبري أسقفاً لإكستر **Exeter** ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجرى تتويج فردريك ملك ألمانيا امبراطوراً من قبل هادريان في كنيسة القديس بطرس [روما]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجة لذلك أمر الملك بهدم ستة من قلاعهم. وتم حرمان وليم بيفيريل **Peverel** أوف نوتنغهام من ميراثه لأنه أعطى السم إلى رانولف إيرل تشستر، واستولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بردجنورث **Bridgnorth** وويغموور **Wigmore** ، الذين حصنهم هيوغ أوف مورتايمر **Mortimer** ضده.

سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القناة من دوفر، ونزل خارج وزانت **Wissant** ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سييل، التي كانت عمته.

### سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد،  
وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه  
مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة  
لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل إلى القدس.

### سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التاج في وورستر، غير أنه بعد  
القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية  
[لأنه كان لديه اهتمام ضئيل بالرسم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم توماس، مستشار الملك إلى باريس، وسط احتفال عظيم، بغية  
تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنري ملك انكلترا القنال فور ساعه نبأ وفاة أخيه غيوفري،  
واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على  
الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية برسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقدم ملك انكلترا إلى باريس بناء على دعوة الملك لويس السابع ملك فرنسا، وجرى استقباله بالقصر، وأعطى مكاناً للإقامة في رواق كهنة نوتردام.

### سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طولوز نفسها احتراماً للملك فرنسا الذي كان مقيماً بها، أما بالنسبة للملك فرنسا، فقد رغب عن طواعية بالبقاء بها مساعدة لكونت سانت جايل (صنجيل) الذي تزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

### سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعد وفاة البابا هادريان، فقد جرى انتخاب اثنين من البابوات، مع أن الاسكندر كان هو البابا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فرنسا بالاسكندر واعترفاً به كبابا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجال الدين الألمان أيّدوا أوكتافيان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فرنسا وانكلترا يطلب منهما أن يقدموا مساندةً إلى هذا البابا

نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فرنسا، ابنة ألفونسو امبراطور اسبانيا أثناء الولادة، وقد ولدت ابنة، لحسن حظها بقيت حية، ولم يتقيد الملك لويس بوقت الحداد المعتاد، بل خلال أسبوعين تزوج من أدلا، ابنة الكونت ثيوبولد كونت بليوس، ورفض سمسون رئيس أساقفة رايمس تعميدها ملكة، لأن زواج أخت أديلا من فيليب أخي الملك قد فسخ بسبب القرابة الوشيحة بينهما.

وخطب هنري ملك انكلترا مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الداوية، حتى يحين الوقت، يوم العرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمر لقد ادعى ملك فرنسا الآن مع اخوان الملكة أن تاريخ اليوم قد حدد أبكر مما توقعوه، وكانوا لهذا مزعوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيوبولد مع حلفائهما نحو تحصين دفاعات شومونت Chau- mont ، أملين بذلك تسبيب الأذى وجلب العار لعدوهم، وجاء على كل حال ملك انكلترا مسرعاً مع رجاله وحاصر القلعة، وعندها انهزم الملك الفرنسي وكونت ثيوبولد، وبعد مضي عدة أيام أرغم القلعة على الاستسلام، واحتجز خمساً وخمسين من فرسان ثيوبولد أسرى في داخلها، وجرى الاحتفال بزواج ابن ملك انكلترا من ابنة ملك فرنسا بموجب السلطة المفوضة لهنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وهما كاردينالان كاهنان ومندوبان للكرسي المقدس، ومع هذا كله كان الطفل مايزال فقط في السابعة من عمره والطفلة في الثالثة، وحدث هذا في نوفبورغ Neufbourg يوم الخامس من تشرين الثاني.

### سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شامسة كوفتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولامن الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولامن البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

### سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قواتهما من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينهما أمر لا يمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضهما بعضاً وجرى الصلح قرب فرتفال .Freteval

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو الذي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر ما رغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فرنسا على مقربة من بيسانكون Besancon ، لاتخاذ قرار حول أي واحد من البابوين سيفضلان، وأعنى بذلك: أوكتافيان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفاة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجرى استدعاء جميع رجال الدين في منطقة كانتبري إلى لندن، وبحضور هنري ابن الملك والقضاة تم انتخاب توماس رئيس شامسة كانتبري بشكل مهيب وبالاجماع رئيساً للأساقفة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن توماس قد انتخب بلا معارضة، إلى قاعة الرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى إرسال الرسل إلى البابا الاسكندر بأن المقترعين من الأساقفة في كانتبري قد اختاروا رئيساً لهم، باجماع كل الأصوات، وقد سيم رئيساً للأساقفة من قبل مجمعهم، ولدى سماع البابا بهذا أعطى موافقته، وبناء عليه، عندما قرئت رسائل الأساقفة، ورسالة راعي دير الثالوث [أي راعي كاتدرائية كانتبري]، ورسالة الملك وضع الطلب بالموافقة أمام مجمع الكرادلة الكنسي، وقد وافق الجميع بدون اعتراض أو تردد وإثر هذا جرت مناولة طيلسان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأساقفة توماس —المقيد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيود القداسة— الطيلسان من على المذبح العالي لكاتدرائية كانتبري.

وعندما ارتدى هذه الأثواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجال الدين، لم يغير فقط مظهره الخارجي، بل طرائق تفكيره وتوجهات عقله، حيث توقف عن الرغبة بالاهتمام بمسؤوليات المستشارية، وأراد بالحرى أن يعفى منها، وبذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الوقت لمخاطبة رعيته، والاشراف على شؤون الكنيسة، ولهذا بعث توماس برسالة إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في نورماندي قدم بها استقالته من المستشارية وتخلّى عن الختم، وكان السبب الوحيد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

يتعارض اطراء فترزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سياسته كان توماس بكت قد مسح بدهن الرحمة الربانية المرئية، حيث وضع جانباً الرجل الدنيوي، وتلبس يسوع المسيح، وتخلّى عن الواجبات الدنيوية لأعمال المستشارية، وكان مهتماً بالقيام بواجبات رئيس أساقفة جيد، وفي سبيل هذه الغاية راقب عقله مراقبة دقيقة، وكانت خطاباته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يرتدي قميصاً من الشعر من أكثر الأنواع خشونة، وكان هذا القميص يصل إلى ركبتيه، وهو مليء بالطفيليات والحشرات، وغذى نفسه بقليل من الطعام، وكان شرابه المعتاد هو الماء المعد لطبخ العلف، وكان على كل حال أول من يتذوق الخمرة قبل أن يقدمها إلى الذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضوع أمامه، غير أنه تغذى بشكل رئيسي على الخبز، علماً أن كل شيء كان نقياً للنقي، والمسألة هنا هي لوم الشهية وليس لوم الطعام، وعرض مراراً ظهره العاري لسوط النظام، ولبس فوق قميصه الشعري مباشرة رداء الرهبان، بحكم كونه راعي رهبان كانتربري، وارتدى فوق هذا ثوب شماس

ليباشي عادات رجال الدين، وكانت ربطة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبتة ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهر رجل عادي، لكنه في داخله كان مختلفاً، وفي هذا قلد القديس سياستيان والقديسة سيشيليا، فالأول مارس تحت رداء جندي أعمال جندي المسيح، وبينما غطت القديسة جسدها بمسح خشن لايساوي شيئاً، تزينت خارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانتة الخاصة كل يوم أقدام ثلاثة عشر متسولاً، وهو راعع على ركبتيه، وذلك تخليداً لذكرى المسيح، ومن بعد تزويدهم بالطعام كان يعطي لكل واحد منهم أربعة شلنات، وإذا حدث في أية مناسبة — وهذا أمر نادر — وحيل بينه وبين ممارسة هذا العمل شخصياً كان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحدهم القيام بذلك، وعندما يكون وحيداً، إنه لمدهش حقاً كيف كان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكون أمام المذبح آلام الرب وكأنها قائمة بالجسد أمامه، وكان يناول القربان المقدس بطريقة الخاصة التي كان يقوى بها إيمان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هذا كان يرعى في بيته المعوزين والمحرومين، فيعطي الثياب لعدد كبير حتى يتمكنوا من مقاومة قساوة الشتاء، وكان في كاتدربري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنه واحد من رهبانه، فيدرس واحداً من أكبر المجلدات، ويذهب بعد هذا ليزور الرهبان المرضى، من أجل أن يعلم ما يحتاجون إليه وليلبي رغباتهم، ولقد كان المستشار للمظلوم، وللزوج الأرملة، والصديق لليتامى، يضاف إلى هذا كان متواضعاً مواسياً للطف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كل انسان آخر، لذلك هجر العالم بشكل كلي، ولهذا عانى من تلك المحنة بشكل مفاجيء، التي هي من عمل يد الرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجته للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس الأساقفة.

### سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضيه في نورماندي، وبريتاني، ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بما رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في ثاوثامبتون في يوم ٢٥ كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتبري لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر الذي كان بإمكان كل واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي ارتقى من رئيس لشمامسة كانتبري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته من رئاسة الشمامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب لذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا التأخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح (١٦).

جرى في ٢٢ تموز استدعاء روجر دى كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتبري ليقدم له الولاء من أجل قلعة تونبرج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شهالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، السولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كل واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم السولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في آينزفورد Eynesford الشاعر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولا واحد من التابعين له (مهما كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعاذته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنها بذلا جهوداً عظيمة ليحصلوا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانهما فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

ضد عدد كبير من الأشخاص.

### سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انزال عقوبات قاسية على بعض أعضاء رجال الدين الذين كانوا مدانين بجرائم، مقدراً أن تسلم مثل هؤلاء الرجال عقوبات أدنى مما يستحقون يحط من النظام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجال الدين الذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضاته، إلى أسقفهم، والذين يجدهم الأسقف مجرمين، عليه أن يجردهم من سلطاتهم بحضور واحد من قضاة الملك، ويتوجب عليه أيضاً بعد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هذا وضع رئيس أساقفة كانتربري أمام المحاكمة بسبب أعماله كمستشار، وظهر أمام المحكمة في ١٢ تشرين الأول في نورثامبتون، واجتمع هناك الأساقفة والإيرلات والبارونات من جميع المملكة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استدعاء روجر رئيس أساقفة يورك، وظهر هناك، وكان قد جرى بأمر من مستشارية توماس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيات، وبما أن توماس تجاوز كمستشار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهما ما يشاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائماً مع القانون الذي ينبغي اتخاذه لحساب مبلغ المرباح، ومع هذا كله، كان قبل أن يرسم رئيساً للأساقفة قد نال من هنري ابن الملك وولي عهده حق الحرية والاعفاء من الواجبات القاضية بتقديم حساب، وعلى كل حال، بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة لتوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح له، قام قادة الكنيسة بإصدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بالتهمة ولا بالادانة، بل ادعى ان ذلك كان لصالح رجال الدين.

وعلى هذا كان رئيس الأساقفة في وضع صعب، متهم بعدد كبير من التهم، ومصاب بكثير من الاهدانات، ومحروم من تأييد الأساقفة، فقام برفع الصليب الذي كان يجمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثناء الليل، وبعد سفر عدة أيام وصل إلى ميناء سندويش Sandwich ، ومن هناك عبر في قارب صغير إلى فلاندرز، وأرسل الملك بعد اختفاء رئيس الأساقفة رسالاً إلى البابا الاسكندر الثالث في سنس Sens.

وكان بين التعليقات التي حملها الرسل من الملك عرضاً إلى البابا أن بإمكانه أن يعث بقاضيين إلى انكلترا، يتوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الذي جرت مناقشته في نورثامبتون، وإيجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهر أثناء سير المناقشات، وذلك بعد سحب الاستئناف، وعلى كل حال عندما وصل رسل الملك إلى قصر رئيس أساقفة سنس، لم يكن رئيس الأساقفة موجوداً، لذلك لم يستطع بلاطه اعطاء جواب حاسم لمطالبهم، حيث أن ما طلب لا يتماشى مع القانون ولا مع العقل.

### سنة خمس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إيانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعندما كان الملك مقيماً في وستمنستر [القصر الملكي قرب لندن] جاء رينالد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم ماتيلدا، كبرى بنات الملك هنري، لتكون زوجة لهنري، دوق ساكسوني (١٧)، وحدث أنه عندما جاء نبلاء المملكة في أهبة عظيمة لإستقباله واللقاء به، رفض روبرت إيرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقه، على أساس أنه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميع المذابح التي أقام عليها المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البابا في سنس، وذهب من هناك إلى دير سسترشيان **Cistercian** في بونتغني **Pontigny**، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عندما كان حاجاً، فيزلي، حيث تولى حرمان عدد من الأساقفة الانكليز كانوا يساندون الملك.

سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:]

«من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب أرغبة عظيمة في رؤية وجهك والحديث معك، وذلك لصالحني، ولكن أكثر لصالحك، ذلك أنك برؤيتك لوجهي ستعيد إلى ذاكرتك الخدمات التي قدمتها لك، عندما كنت تحت طاعتك، لقد خدمتك باخلاص مرضياً ضميري، حتى — لعل الرب يساعدني في يوم الحساب — عندما يقف الجميع أمام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملوه عندما كانوا أحياء، ولا بد أنك ستتحرك شفقة عليّ، أنا

الذي توجب عليّ أن أعيش بمشابة متسول بين الأجانب، حتى في هذا الحال —شكراً للرب— لدينا كثيراً من الخيرات والنعمة».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون (١١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيا، وجون أوف نابل —نائباً الملك— ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل Montmirail، ومع أن رئيس الأساقفة شعر أنها يميلان أكثر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكاردينالان جلسة علنية، وبذلك كان من الممكن إعادة اعتبار كاملة له شخصياً ولأتباعه وذلك وفقاً للقانون اللاهوتي، لكن رئيس الأساقفة المسلوب لم يرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن ارغامه بأي شكل من الأشكال، حيث أن النائين اللذين لم يستطيعا ارغامه، ولم يرغباً بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخفقين.

وجاء الملك لويس السابع، ملك فرنسا إلى بونتغني، حيث أظهر الرهبان كلّ لطف نحو رئيس الأساقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألاّ تتعرض رهبانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخذته معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

### سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكا فرنسا وانكلترا: وأحرق النورمان كومونت Chau-mont قرب غيسور Gisors وأسروا عدداً كبيراً من الفرسان

والمدنيين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أندل Andelys وهو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche، ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكويتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إيلانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيا بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتبري مقيماً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيا بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتماس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلي:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتبري إلينا حرة، وكاملة حسبما كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لتتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلما كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينا إلى رئاسة الأسقفية، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأتباعنا، وعليه أيضاً أن يأذن لنا في استحواذ الكنائس العائدة لرئاسة الأساقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها ما نرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا موافقة كاملة لسببين: بما أنه لم يطرد رئيس الأساقفة، هو لم يكن ملزماً —تمامياً مع سمعة المملكة— بتغيير أي شيء باسم إعادة الاعتبار، كما أنه لم يكن ملزماً بأن يعلن إلغاء تملك الممتلكات الشاغرة، التي جرى منحها لبعض الأشخاص، لكن حتى يعبر عن نفسه بأنه حاكم ملتزم بالقانون، أعلن أمام ملك فرنسا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعرضها للمحاكمة في القصر في باريس، بوجود نبلاء فرنسا هناك، أو بوجود الكنيسة الفرنسية واستخدامها لنفوذها، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثار من قبل كراهية عدد كبير من الناس ضده، بوساطة هذه الكلمات أن يكسب الكثيرين إلى جانبه، وبهذه الوساطة كان من الممكن لملك انكلترا ولرئيس الأساقفة الوصول إلى نوع من الاتفاق، وذلك إذا مارفص الملك رفضاً تاماً إعطاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

### سنة سبعين ومائة وألف

عقد الملك يوم عيد الميلاد بلاطه في بلدة نيتس Nentes، بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء له ولابنه غيوفري معاً، وعاد في أيام الصيام إلى انكلترا، وعندما

تعرض عدد كبير من حاشيته لمخاطر عاصفة بحرية هبت بشكل مفاجئ، نجا هو نفسه منها دون أن يصاب بأذى بفضل نعمة التقوى للرب.

وفي أثناء غياب بكت عن انكلترا، قرر هنري الثاني استخدام رئيس أساقفة يورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجرى في ١٤ حزيران رسم هنري، أول أولاد الملك هنري، ملك انكلترا، ولادة، ملكاً، وكان ذلك في وستمنستر، من قبل روجر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القنائة، بعد تتويج ابنه، وعقد مؤتمراً في مونتميريل بينه وبين رئيس الأساقفة توماس، حيث كان ملك فرنسا حاضراً، لكن بعد جهود كبيرة، عندما جاءت ساعة العناق، ولأن رئيس الأساقفة قال: «إنني أقبلك تمجيداً للرب»، رفض الملك القنائة لأنها عرضت مشروطة، فلأن أجدادنا اعتادوا أن يولوا اهتماماً عظيماً للصيغ في القانون، هكذا اعتاد الملك على التمسك بنهايات بعض العبارات في كلمات رئيس الأساقفة، مع أنه تلفظها بضمير نقي، مثل أن تقول أحياناً: «حافظاً أمري» وأحياناً: «حافظاً مجد الرب» وأحياناً أخرى: «حافظاً إيمان الرب».

والتقى ملك فرنسا ووليم رئيس أساقفة سنس، وأسقف نافار -Nev- ers ثانية في فرتفال Freteval، وعندها —على كل حال— تفارق ملك انكلترا ورئيس الأساقفة مرتين، وترجلا مرتين، ومرتين امتطيا فرسيهما، وأمسك الملك مرتين بالركاب لرئيس الأساقفة، ثم حدث لقاء آخر في أمبواز Amboise بالوصول بسرعة لتفاهم أسهل، وهنا توصل الملك ورئيس الأساقفة إلى اتفاق، وتدبر هذه المرة السلام بينهما

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباتي، وبناء عليه إنني أمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتوود Saltwood، وعليك — اعتماداً على أيانهم — أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة كانتربري هناك، واعمل مايلزم لتتأكد من حصول رئيس الأساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضمانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«.... بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جمدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامي ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسما أمامنا أنهما سيطيعان أمرنا، إننا سنحللها من أجل سلام الكنيسة، وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجاباً أن قسماً من هذا النوع لا ينبغي تأديته إلا إذا توافق مع رغبات الملك»!

وبينما كان توماس، رئيس أساقفة كانتربري في طريقه لزيارة الملك الشاب هنري، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في وودستوك، جرى استقباله بحفاوة كبيرة من قبل سكان لندن، وفي يوم ١٨ كانون الأول، عندما كان ضيفاً في ساوثوورك Southwark، وصل رسل من عند الملك الشاب إليه، محظرين عليه، بناء على أوامر الملك، أن يذهب إلى رؤيته، وبناء عليه، وعوضاً عن الذهاب، عاد إلى كنيسته، وهكذا رجع إلى كانتربري، وأعدّ العدة للاحتفال بعيد الميلاد هناك، وذلك بوجود عدد كبير من رجال الدين جاءوا من مختلف المناطق، للاجتماع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس — رئيس أساقفة كانتربري المنبر — ليتولى أداء موعظة للشعب، وعندما انتهى، وقام بالصلوات المعتادة للرب، وللبابا، وللملك، وللخلاف الشعب، وفيما الشموع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيجل دي ساكفيل Nigel de Sackville، وهو ظالم عنيف لكنيسة هاردرز Hardres وكاهن الكنيسة نفسها، وحرماً أيضاً روبرت دي بروك الذي شوه فرساً من خيول رئيس الأساقفة نفسه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليوم الخامس من أيام عيد الميلاد، عند حلول الظلام، وفيما رئيس الأساقفة مقيم في جناحه، ومعه أعوانه، حمل الغضب الشديد وليم دي تريسي Traci، ورينالد فترأورسن Fitzursen، وهيوج دي مورفيل Moreville، ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فرساناً أربعة جاءوا من نورماندي، حملهم الغضب على اقتحام الجناح، وهددوا باسم الملك، الذي كان مقيماً في نورماندي، وطالبوا بأن على رئيس الأساقفة أن يعيد الأساقفة الانكليز المجمعين إلى مراكزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولا يمكن لأي إنسان أن يؤثر بما رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ما أقسم أسقفنا لندن وسالسبري أنها سوف يطيعان أوامره، سوف يجللها من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، وارتدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها، ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه، وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليمات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحول كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيما الحركة تغطي كل الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة؟» وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الخشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهورة، قال: «إنني أعهد بنفسني وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى داينيسيوس المبارك» (١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فترزستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحد الفرسان بسطح سيفه بين كفيه، وهو يقول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأساقفة وقف دونما حراك وقدم رقبتة [للقطع]، وأوقف نفسه وكرسها للرب، بينما كانت شفتاه ترددان أسماء رؤساء الأساقفة المقدسين الذين استشهدوا قبله، وصرخ واحد من الأعداء قائلاً: «أنت أسيرنا، تعال معنا» ووضعوا أيديهم عليه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيديهم، وأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «لن أتحرك من هاهنا، عليكم هنا اتمام عملكم وتنفيذ رغباتكم وإطاعة أوامرهم»، واصطرع معهم بقوة وإرادة، وذلك بينما أمسك به الرهبان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim، وقد صب عليه سلاحه [ليصد الضربات]، ولقد تلقى أول ضربة بالسيف وجهها وليم دي تريسي نحو رأس رئيس الأساقفة، وجرح بهذه الضربة جراحة كبيرة رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم إصابة بالغة.

ومسح رئيس الأساقفة بذراعه الدم الذي تدفق من رأسه، وقدم الشكر للرب قائلاً: «بين يديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكان يصفق بيديه، ويمدّهما نحو الرب، وتلقى ضربة ثانية على رأسه، سقط على إثرها منكباً على وجهه، إلى جانب المذبح الذي كان هناك، وكان مكرساً للقديس بندكت، ولقد اعتنى به ومنحه — على كل حال — النعمة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقبيه بردائه، وكأنه كان يصلي ويتعبد، ولقد سقط على الجانب الأيمن، وكأنه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيما هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بريتنو ضربة شديدة إلى حد أن السيف تحطم أمام الرأس وبلاط الكنيسة، وكان يردد حين ضربه: «خذ هذه الضربة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخو الملك» [الذي حرم توماس زواجه من الكونتيسة وورين Wa-  
[renne] لقد أصيب رئيس الأساقفة المقدس بأربع إصابات،  
تلقاها جميعاً على رأسه، وكانت كل واحدة منها مميتة، فقد فصل غطاء  
الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطرافه أطاعت حركات  
روحه، وظهر واضحاً أن ما كان يدور في عقله، اختلج في جسده، وأنه في  
تصديه للضربات وفي محاولة تجنبه لها لم يكن يصارع ضد الموت، بل  
تقبل الموت عن طواعية، ولرغبته في أن يكون مع الرب، وليس نتيجة  
ضربات قاتلة من سيوف الفرسان، ووضع واحد اسمه هيوغ هورسي  
Horsea ولقبه موكلارك Mauclerk قدمه على رقبة الشهيد  
الممدد، وأخرج برأس سيفه الدم والدماغ من قحف الرأس المقطوع،  
وكان هذا مشهداً محزناً مرعباً، لم يسمع بمثله من حيث الوحشية، من  
جانب الذين يدعون المسيحيين، وهبت عاصفة مخيفة تعلقت غيومها  
بقبة السماء، وهطل مطر سريع، وكانت هناك رعود تزجر حول السموات،  
وتحول بعد هذا لون السماء إلى أحمر قانيء تجاوباً مع الدم الذي سفك،  
وتعبيراً عن الرعب والغضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب  
بطريقة أقل إثارة من طريقة فترزستيفن، كان الغضب الشديد تجاه مقتل  
رئيس الأساقفة ما يزال واضحاً.

ونهب روبرت دي بروك مع أصحابه ممتلكات رئيس الأساقفة،  
واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات  
من أيدي العمال، وهربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجدوها  
في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من  
مذبح القديس بندكت، ووضع أمام المذبح الرئيسي، وكان ذلك عند  
الغسق، وهناك بات ما كان معروفاً فقط من قبل حاجبه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لزمّن طويل، بتغطيته بردائه الرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليوم اشاعة شريفة، تأكدت فيما بعد، بأن المجرمين الأشرار الذين نفذوا جريمة القتل قد تأمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكان المقدس، وأن يرموه خارج أسوار المدينة ليمزق من قبل الكلاب، أو من قبل الطيور، ولذلك قرر راعي دير بوكسلي ورئيس وأعضاء دير كنيسة كانتربري قراراً حكيمياً، في أن يقوموا بدفن الجثة وإن كان الوقت متأخراً، وبدا لهم أنه لا توجد حاجة لغسله بالماء، خاصة وأنه كان نال النقاء بسبب التشفط الطويل لرئيس الأساقفة، لهذا مسح بقطعة من القماش الشعري، وقد تطهر بدمه نفسه.

### سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملك هنري ملك انكلترا في تلك الآونة مقيماً في نورماندي، في أرغنتان Argentan، عندما حمل بعض الناس إلى مسامحة الاشاعات المؤسفة، انقلب فوراً إثر سماعه للقصة الشريفة، إلى جميع أنواع البكاء وضروب التعاسة، وبدل ثيابه الملكية تبديلاً كاملاً ولبس الأثمال ووضع على رأسه الرماد، داعياً الرب القدير ليكون شاهداً لصالح نفسه، أن الفعل الشريفة لم تنفذ بارادة منه، ولا يعلم منه، كما أنها لم تكن واردة في مخططاته، ما لم يكن قد أذنب في اعطاء الشعور أنه حمل قليلاً من الحب لرئيس الأساقفة حتى ذلك الوقت، وعلى رأس هذا كله وضع نفسه مباشرة أمام عدالة الكنيسة، ووعده بكل تواضع في أن ينفذ كل ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسلاً إلى البابا للدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قربلاً تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك انكلترا بالاسم وضد جميع أراضيها على طرفي القنال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتربري مع جميع الذين زدوهم بالمساعدة أو بالرضى، والذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثامبريا North-umbria لمدة سنة.

وبدأ في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كل مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديدة بالمدح لشهيدته الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتربري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لانظير له في وجه الموت، وتجلي هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦ آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكان أثناء سفره قد زار هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، الذي كان على فراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقد واللوم إلى الملك بشأن وفاة الشهيد الرائع، وتوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومات هذا الأسقف العجوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨ آب.

### سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلة عيد الميلاد رعد في إيرلندا وانكلترا، وفي جميع أرجاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى إيرلندا حيث نزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١١٧١، ولمدة تقارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكاته التي كانت واسعة جداً وعريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينما كان الملك متأخراً في إيرلندا، بدأ هيوغ أوف سينت مور ورالف دي في Fayes، وهو عم الملكة إليانور، في حرق عقل الملك الشاب، وابعاده عن أبيه، وقد قيل كان هذا بناء على نصيحة من الملكة، وقال له: إنه لمن الواضح أنه من غير اللائق أن تكون ملكاً ولا تمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنري الثاني في إيرلندا بالاسهال في المعدة، بسبب أكلهم لحماً جديداً وشربهم الماء، وهو أمر لم يعتادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعندما فهم سكان إيرلندا تمام الفهم كيف أن نوايا ملك انكلترا

تتعلق بالكامل في تأسيس السلم والحفاظ عليه، وأنه لم يشجع على الجريمة بالتورط بها، كما أنه لم يسرع قط بإصدار الحكم على أحد بالاعدام، عند هذا وعندما جمعهم بمرسوم صادر عنه التقوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمان، من خلال الخوف من العقوبة، ولأنهم عانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العدالة والسلطة بينهم إليه وفيه، وهكذا حصلوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديد من القضايا المختلفة استدعت وجود الملك، ركب هنري ظهر سفينة عند حلول الظلام، ووصل في اليوم التالي إلى ويلز، ورسا على مقربة من سينت ديفد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وكأنه يريد مستعجل، وهنا صعد إلى أحد المراكب، وقال وداعاً لانكلترا، وبعد عبور لطيف وصل إلى نورماندي، وعندما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملك فرنسا، قال مندهشاً:

«في ساعة ملك انكلترا موجود في ايرلندا وفي ساعة ثانية هو في انكلترا، وفي ساعة تالية هو في نورماندي، لا بد أنه طار ولم يسافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعندما وصل هنري إلى نورماندي بادر على الفور إلى زيارة ألبرت وثيرودين، وهما كاردينالان وممثلان للبابا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفرانشر Avranches، أقسم الملك بحضور المنسويين أن موت الشهيد الرائع توماس لم يتم الإعداد له بالتوافق مع رغباته، ولا بمعرفته، ولم ينفذ بوساطة خطه، ولكن بما أن المجرمين اغتتموا فرصة قتل الرجل المقدس بسبب كلمات تلفظها بدون انتباه عندما كان غاضباً بشدة، فإنه طلب بكل تواضع

التحليل منها، وقد منح ماطلبه، وعلى هذا بات هو في نظر الكنيسة قد حظي بالتحليل الكامل، وواعد، بناء على رغبات الكاردينالين وأمرهما، أنه سيدفع ابتداء من حلول الصوم وكلّ سنة مبلغاً من المال يكفي بتقدير فرسان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للدفاع عن أراضي القدس لمدة سنة.

وواعد أن دعاوى الاستئنافات يمكن القيام بها بكل حرية، وأن الممارسات التي فرضها حكمه ضد حرية الكنيسة سوف تزال، وسيتم بالكامل رد جميع الممتلكات العائدة إلى كنيسة كانتبري، تلك الممتلكات التي نقلت بعد مغادرة رئيس الأساقفة صاحب الذكرى المقدسة، كما سيسمح لرجال الدين وسواهم من كلا الجنسين، الذين غادروا المملكة تعاضداً مع توماس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إياها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسام اليمين والواعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مرغريت، ابنة لويس ملك فرنسا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفة مرغريت ملكة على انكلترا في ٢١ آب، في ونشستر، ووضع التاج الملكي على رأس الملك الشاب مع أسقف افروكس Evreux وكان يتلو معه القداس وكذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتبري.

وبناء على طلب ملك فرنسا ورغباته، جرى منع حضور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقف لندن وسالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثناء غياب بكت عام ١١٧٠]، كما حظر عليهم اعاقاة التتويج بأية طريقة من الطرق.

سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنه جون المدعو Laukland [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في السابعة من عمره، الابنة الكبرى لـ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبما أن هذا الكونت لم يكن لديه أمل بالحصول على ولد ذكر جرى وضع أربعة من قلاع، المشهورة بأنها أفضل القلاع التي حصنها البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريفة قام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتان Argentan ليلاً، ولم يعلم عبيد والده الذين تولوا خدمته شيئاً حول ما حدث، وهكذا ذهب في ٢٣ آذار عبر مورتان Mor-tagne — وهي قلعة عائدة إلى ثيوبولد كونت بورش — إلى ختته الملك لويس ملك فرنسا، وكان والده في تلك الليلة نائماً في ألنكون Alencon وقد أوقظ وأخبر بفرار ابنه، فقام على الفور بامتطاء ظهر فرسه، وسار ومعه عدد قليل من أتباعه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطها إلى الملك الشاب بائنة [دوطة] عن ابنته مرغريت، واختار رتشارد دوق أكوين وغيو فري دوق بريتاني، وهما الابنان الأصغر للملك، أن يلتحقا بأخيها بدلاً من أبيهما، وقيل كان هذا لاتباعها نصيحة أمها إليانور، وبات هناك في كل مكان تأمر، ونهب، وحرق، وإذا ما أخذنا النذر من المواسم، نجد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يلقون في كل مكان أسلحتهم، احتراماً لعيد الفصح، وشقاقاً من هذا النوع لا يمكن أن ينتهي بسعادة (٢٠).

وجاء مائة وأربعون فلمنكياً إلى قرب باسي Passy وأغاروا على نورماندي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلأ المكان على الفور بأصوات الأبواق، وبصراخ الناس، وبالرجال المسلحين يركضون هنا وهناك، وجعلت المقاومة النورماندية الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بالانسحاب بأقصى سرعة ممكنة، لكن الجسر الذي عبروا عليه كان قد جرى تدميره من قبل إحدى النساء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانب النورمان، فعندما غزت أنا نورماندي آخر مرة مات جزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننا اليوم أن نشكو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسة كانتربري، وعندما اجتمع الأساقفة للتداول حول هذا، قام أودورئيس كاتدرائية كانتربري مع الجزء الأكبر من الدير باصرار منذ البداية في طرح رأي لم يسمع به من قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأساقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عام من قبلهم، وحيث أن هنري الثاني كان آنذاك مهتماً عظيم الاهتمام في أن يكون الانتخاب بدون اضطراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبان وهما: أودورئيس دير كانتربري ورتشارد رئيس دير دوفر، وعندما قدمها الرهبان إلى الأساقفة، كانت كل رهبانية تأمل في انتخاب رئيسها، وقام غلبرت أسقف لندن قبلهم جميعاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نزل باتفاق مع الأساقفة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحدث هذا كله في بيعة القديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبموافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البابا الاسكندر، إلى اخوانه المحترمين رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه مطارنة الكنائس الأخرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شندي ومحاسن المعجزات التي عملها الرب القدير خلال فضائل توماس المقدس والمبجل، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، ولقد أشعت حياته بمجد عظيم جداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركة الرائعة للشهادة، ومامن واحد يسمع عن حياته التي هي موضع الاعجاب، ويقدر آلامه الرائعة، يمكنه أن يمتلك أدنى شك حول قداسته، ولإخبارنا بشكل مستمر من قبل جميع المؤمنين بأخبار المعجزات العظيمة التي لاتعد، والتي جرت من خلال فضائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الذي ضم رجال الدين وغير الدين «تطويب» رئيس الأساقفة السالف الذكر، ورسمنا بادراج اسمه في جدول أسماء القديسين، وبناء عليه إننا ننصح، ونأمر من خلال سلطاتنا جميعكم أن تحتفلوا بوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كل سنة في يوم آلامه.

صدر في سغني Segni, ١٣-آذار.

وما ان انتهت قراءة الرسالة حتى رفع الذين كانوا هناك أصواتهم بمدح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونت فلاندرز وأخيه ماثيو كونت بولون، وقد كسبها بوساطة وعود سخية، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين فور الدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهاجموا نورماندي في أبهة عظيمة، وجرى الاستيلاء على قلعة أوميل Aumale بسرعة كبيرة، وكان ذلك على حساب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت Drincourt وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥ تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عتم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايوو Eu التي كانت تحت الاشراف الكامل للملك الشاب.

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدّر انه إذا ما التقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يمزج غضباً، قرر أن أفضل طريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هو الفرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصوى نحو فرنسا، وتركت الأثقال العائدة للفرنسيين لتتهدم من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الذين وصلوا إلى هناك، ونهبت في يوم ٩ آب جميع المؤن والأطعمة التي جرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon.

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد إليه الممتلكات الموجودة في نورثامبرلاند Northamberland التي

كانت أعطية إلى جده الملك داود، فهذا يؤكد له بوثيقة رسمية، وهي الممتلكات التي بالواقع احتلها داود لعدة سنوات، لكن مطلبه رفض، ولذلك جمع جيشاً من الأعداد الكبيرة للغالويين Galwegians وجعله تحت تصرفه، وكان سلاح هؤلاء خفيفاً، وكانوا رجالاً يتمتعون بالرشاقة، يمكن تمييزهم بسهولة برؤوسهم الصلعاء، وكانوا يحملون سكاكين على الجانب الأيسر، كافية لإخافة أي جندي، كما أنهم كانوا راغبين في رمي الرماح إلى مسافات طويلة، واعتادوا على أن يرفعوا رماحاً طويلاً إشارة على أنهم زاحفين نحو المعركة، واستحوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلكات هيوج أسقف درم Durham وبدأ يعيث فساداً في انكلترا، ملقياً النار في المدن، ومستولياً على كميات هائلة من الأسلاب، وآخذاً النساء أسرى، وممزقاً الأطفال نصف أحياء بعد اخراجهم من بطون أمهاتهم، وبغية إيقاف هذه الفظائع ومنعها، حمل النبلاء الانكليز السلاح بالسرعة القصوى، وأرغموا على الفور ملك السكوتلنديين على الفرار، والانسحاب إلى اسكوتلندا، وساروا في إثره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينة وقع في أيدي الانكليز كأسلاب، وبناء على طلب ملك السكوتلنديين جرى عقد هدنة حتى ١٣ كانون الثاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

## سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قام الملك الشاب وبصحبته ثيوبولد كونت بيرشي Perche وكونت ألكون Alencon ومعهم حوالي الخمسين فارساً، بمهاجمة مدينة سيز Sees ولكن الذي حدث أنه مع أن سكان المدينة لم يكن لديهم أمير أو قائد، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشية من هنري الثاني من أن يقوم الملك الشاب، أو واحد من الجيران على الحدود بمهاجمة بلاده والعيث فساداً في نورماندي، عهد بحماية نورماندي إلى أقرب الأصدقاء إليه وإلى الذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليورد دي فافاشي Alured de Vavaci وغيوفري استورمي Esturmi كإختبار لإخلاصهما له، ودخل في ٣٠ نيسان إلى مين، فتدفق السكان عليه من جميع الاتجاهات ومنحوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكان ذلك خشية من الحرب، أو خوفاً من أي نوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خلال البلاد، وقد أحاطت به أعداد كبيرة من الجند، فتولى تمكين ثقة الناس به، وحث النبلاء المحليين على الدفاع عن مناطقهم وحمايتهم، وعندما وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كل واحد كان معه باستثناء الرجلين اللذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجيفيون بالملك بسرعة أكبر وبأعداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغباته بحب أكبر وباستعداد أعظم.

والآن وقد سار كل شيء طبقاً للخطة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بواتيه، وعندما سمع أن جيش ابنه رتشارد كان يحتل مدينة سيتس Saintes أخذ سكان بواتيه معه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جند رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقدسة، ودخلوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخرى، وحولوها على الفور إلى حصن، وملأوها بالسلاح وبمؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجند، وأخبر أن المدينة مدافع عنها بوساطة ثلاثة حصون، وقد ركز أولاً القتال على المدينة، وتمكن في البداية من الاستيلاء على الحصن الذي بني منذ وقت بعيد عند مدخل المدينة، وتابع من هناك فهاجم القلعة بنجاح مماثل، وكانت قلعة أكبر من الحصن الأول، لكن أقدم بكثير منه، ووصل أخيراً إلى الكنيسة الكبيرة، التي اكتظت بجند مسلحين وامتلات حتى حدود الانفجار بالرماة، وكانت مداسة من قبل حفظة بيوت الدعارة، ولاحظ وهو يقترب منها أنه إذا ما اقترب شيء ضد الديانة المقدسة، سيعاني من ذلك كل إنسان، ومع ذلك اقترب منها وهو لا يريد أن يؤذي الكنيسة أو يقترب العنف ضدها أو الاستخفاف بها، بل أراد تنظيفها من الدنس، وسحب من الكنيسة الذين خرقوا حرمتها، لقد سحبهم جراً إلى خارجها، لأن كل من خرق حرمة القانون، عبثاً يثبه ضده، وألقى القبض على حوالي الستين من الفرسان مع نحو أربعمئة من الرماة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعرفة هنري ملك انكلترا بما كان يجري في فلاندرز قرر العودة، فأوكل أكوتين إلى ستة من النبلاء، وبني على الحدود بين نانتس Nantes وأنجر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شؤون هذه القلعة بشكل خاص إلى موريس أوف كرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصدر عند وصوله إلى نورماندي مرسوماً في بونفيل سمى فيه جميع الذين عهد إليهم بأموال الحدود والذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كونت أوف فلاندرز، أمام لويس ملك فرنسا ونبلاء المملكة، بوضع يده على بعض الآثار المقدسة، أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضي عيد القديس جون المقبل في ٢٤ حزيران، بغزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الملك الشاب، وتأثر الملك الشاب بهذا العرض للولاء، فذهب إلى وزانت **Wissant** يوم ١٤ تموز ليرسل رالف أوف لي هي **Haie** إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كونت فلاندرز بثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً أمامه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحداث وتوفر من السكان المحليين، بل جنوداً ذوي خبرة اختير عدد كبير منهم من الفلمنكيين، وبعدما نزل هؤلاء في انكلترا في أورول **Orwell** يوم ١٥ أيار، في وقت كان فيه حلفاؤهم في خطر، هاجموا من هناك نوروك **Norwick** يرافقهم إيرل هيوج، واستولوا عليها في ١٨ حزيران، ونهبوها، وحملوا مبالغ ضخمة من المال، كما حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغموهم على دفع فدية كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليه عدداً كبيراً من الرسل عبر القنال، غير أنهم لم يتلقوا أية أجوبة مؤكدة بأن هنري قد خطط للعودة إلى انكلترا، وقاموا بمحاولة أخيرة بهذا الصدد فبعثوا رتشارد الأسقف المنتخب لونيستريتحدث إلى الملك، وكان رجلاً يعرفون بشكل مؤكد بأنه كان صديقاً حميماً للملك وقريباً منه أكثر من الآخرين، وكان بارعاً وعالي الحماسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعب، والمخاطر التي تحملها شعبه، وأن يقدم له صورة صحيحة عن الصراعات التافهة للنبلاء، والحالة غير المستقرة في المدن، وتذمر الناس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعون نحو التغيير، وقد يقومون بحركات سيكون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل،  
عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤ حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونهاسترد قد وصل،  
وعلموا سبب قدومه، قالوا: «بما أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل،  
وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة  
لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديدة به، وأظهرت  
الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم  
نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة  
خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة  
إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمامه إيرل تشستر، وكونتيسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد  
أخذهم أسرى إلى بارفليير Barfleur حيث توفر عدد كبير من  
السفن الراسية، وجمهور كبير ينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من  
المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام  
Quistreham وأسرع الملك إلى المرسى في ٨ تموز، وتحركت السفن  
وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت  
الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة  
مترددین بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت  
وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما  
كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة  
قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كل واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غاييتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندها يمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم الذي أُلغ فيه عند حلول الظلام إلى ساوثامبتون، مع كل شيء سلباً، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥ تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه ماداً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتأمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بما أن القتلة قد أثيروا بكلماته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كل واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونفض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدر بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون إيجاراً سنوياً لتزويد وسائل الإضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له.

وأَمْضَى بقية النهار ومجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها، منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كل وقت، وذلك تقليداً للملك داود، كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب»، ولهذا استحق أن يسمع من النبي كلمات: «لقد غفر لك الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أرضى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد غفر وأزيح عنه، ففي ذلك السبب بالذات، عندما صلى من أجل أن يظهر توماس الرحمة نحوه، ألقى الرب بين يديه وليم [الأسد] ملك السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin] التي قال فيها: «سيعثر بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا Armorica» ولقد أراد بخليج أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل أمراء بريتانيين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فاتوسمي **Fantosme** قبل ١١٨٣ في تاريخه المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيماً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم

غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حد ما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف

بشكل مجنون

وروجردي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل

الذي كان يعاثر فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً

وقبل أن تحمل ساعة ذهابه إلى الفراش

وصلته قطعة من الأخبار كسب منها

شرفاً عظيماً

دخل الملك إلى حجراته الخاصة

عندما جاء الرسول، عانى من

كثير من المتاعب

هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام

من الأسبوع

ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار

بل أنهك نفسه في الليل والنهار

بالترحال.

لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة

كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً

ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحها بلطف

لم يكن هناك صوت ولا صراخ، كما لم يكن من

بتكلم هناك

ولم يكن أبصا لاطبل ولا مزمار ولا أي شيء يصدر عنه صوت  
في تلك الساعة.

عندما وصل الرسول إلى الباب وبلفظ  
دعا

وقال الحاجب: من هناك؟

أنا رسول، صديق، حنث الآن مسرعا عبر هذا الطريق  
لورود رايولف غلانقبيل بعث بي إلى هنا  
حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة  
بعنني من أجلها

وقال الحاجب: دع العمل الآن

حتى الصباح

وقال الرسول: بحق إبياي، أنا سوف

أنكلم إليه الآن مباشرة

في قلب مولاي حزن وأسى

لذلك دعني ادخل أبها الحاجب الجيد

وقال الحاجب: أنا لن أحرقة

ان أفعل ذلك

الملك باسم، علبك الانسحاب

وفيا هما يتكلمان، أفاق الملك  
وسمع صراخاً عند الباب: افتح.. افتح  
وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟  
وقال الحاجب: سيدي، ستعرف  
مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً  
إنك تعرفه  
رجل من عند غلانفيل، اسمه  
هو برين Brien

وقال الملك: يا بني، أنا الآن مرتبك جدا  
إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا  
ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب  
وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:  
سيدي الملك، علّ الرب الذي بسكن  
في التثليث يحفظك  
يحفظ شخصك أولاً، ثم جميع  
أصدقائك المقربين

وقال الملك: برين ما الذي تحمله من أخبار؟  
هل دخل ملك اسكوتلندا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك  
على الحصون؟

هل أودنيل أوف أمفرافيل Odnel of Umfravile أسر وحمل  
بعيداً

وجميع باروناتك طردوا من ممتلكاتهم؟  
يا إيمانك أيها الرسول، أخبرني الصدق  
لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن  
يعاقبوا بسببها.

ثم قال الرسول: سيدي، اسمعني قليلاً  
باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون  
باسم مولاي تلتطف واصغ إليّ  
لقد بعث لك بوساطتي تحية وصدقة  
وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها  
أنت معرفة جيدة

لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترف  
خطأ في تعذيب نفسك

لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته  
فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟

نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم  
سيبعث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين  
لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق  
لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة  
كما أنني لم أكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً  
لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك  
ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذاً  
شككت بذلك

إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بما فيه الكفاية  
هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق  
نعم ياسيدي، بإيماني، لأصلب  
على الصليب  
أو أشنق بحبل، أو أحرق على نار عظيمة  
إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله  
عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك  
وللقديس توماس الشهيد ولجميع  
قديسي الرب

وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته  
وكان لديه الكثير الوفير لياكل ويشرب

وكان الملك في تلك الليلة فرحا مسرورا إلى حد

أنه ذهب إلى الفرسان

وأينفذهم جميعا قاتلا:

أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم

لقد سمعت شيئا سيجعلكم جميعا مسرورين

وقع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا

صدفا أخبرت

الآن للتو وصلت الأخبار إلي، عندما نوجب

أن أكون في الفراش.

وقال الفرسان. الآن شكرا للمولى الرب

الآن انتهت الحرب، ومملكتك

في سلام

وبدت هذه الليلة حملا جدا للملك هنري

وفي اليوم التالي، قبل الظهر، الأخبار نانة

وحصلت إليه

من ريس أسافعه يورك، الذي

بشعره روحه

الذي حبا مولاه واهنم بالانخلاص

عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً  
وخن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا  
أجابهم:  
سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت  
قلقاً جداً  
للذي جلبها إليّ جائزة  
سوف تعطى  
وتناول عصاً صغيرة، وأعطاهما لبرين  
عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب  
التي قاساها

ونعود الآن إلى رواية ديسينو عن حملات هنري الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل  
تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث  
اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهة هناك، عندها انطلق على  
رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة  
التي كانت تحت الحصار منذ ٨ أيام، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.  
واستولى نبلاء نورثامبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك،  
والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد  
kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري Mowbray  
بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خمسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفرادهم إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لي هي، بدون اعاقه ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد ألقع يوم ٧ آب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلنديين، ووصل في ١١ آب، بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢ تموز، أملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطحوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل Verneuil والعمل الخياني الذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة مقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجاعة، واعتمدوا على دفاعات الأسوار، واستخدموا حجارة  
مربعة، وقطع طويلة من الخشب مدبية، فأرغموا الأعداء على فرار  
طويل، وذلك بعدما هاجم هؤلاء الأعداء الأسوار الخارجية بتشكيلات  
قتالية واستخدموا آلات الحصار، ولم يعرف الذين كانوا تحت الحصار  
الاستراحة، واستطاعوا أن يضعوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار،  
وتبادل الفرنسيون والفلمنكيون حملات القتال، وعندما شرع الفرنسيون  
يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كل  
مالديهم من قوة للغم الأسوار، وبقي النورمان غير هيايين لتهديدات  
الأعداء وهجماتهم، واثقين من توقعات النصر، ونجوا من الهجمات  
المتوالية والاشتباكات الحادة بكل ثبات، وكان عددهم يزداد يومياً،  
وكانت المؤن والأطعمة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقابل أخذ كثير من  
الناس بالفرار من الجيش كل يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هذه الحالة الحرجة لأيام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي  
تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا  
آل إلى حالة رعب وحيرة، ذلك أنه بات خائفاً حسبما استخلص من  
الأقاويل، أن الملك سوف يهاجم فرنسا ويلقي الحصار على باريس،  
وبحث مع مستشاريه حول أفضل طريقة لايقاف الحصار، بدون أذى  
لأنفسهم، وبعد اتخاذ قرار عام، أقدم الفرنسيون مع الفلمنكيين على  
احراق آلات حصارهم، وعلى تمزيق خيمهم، وعلى إلقاء النار في  
أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤ آب تراجعوا وانسحبوا من قرب  
المدينة، وذلك على الرغم من موت الاشاعات والأقاويل، وبهذا أزاحوا  
جانباً جميع تهديداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهود على أنفسهم بهدم  
روان، العهود التي غالباً ماقطعوها بحماقة وعجلة، وهاجم أناس من  
منطقة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبوا بسرعة أعداد كبيرة  
من السلاح وكذلك العتاد.

وكان الفرنسيون قلقين بشأن النفقات، كما كان الفلمنكيون خائفين على حياتهم، لذلك اجتمعوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبما أن الفريقين رأيا أنها يبددان جهودهما قررا ايقاف الهجوم على النورمان والانسحاب من الحدود، ونظروا نحو سلمهم أنفسهم وهدوتهم، لذلك قرروا بذل أقصى ما يستطيعون لردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القول: إن الأولاد قد أضروا قضية أبيهم، وجلبوا بغضاء رجال الدين ولعنة الناس، ومع هذا ينبغي العفو عنهم لأنهم كانوا شبابا.

وتوجه الرئيس المنتخب لأساقفة كانتبري إلى روما بغية تجنب كائن الانشقاق. وكان العالم بأسره مرعوباً في هذا الوقت من الاصابة بعدوى صادرة عن غيوم الهواء الفاسد، وكانت تسبب سعالاً عاماً واسهالاً بالمعدة، وكان هذا خطراً بالنسبة للجميع، وأدى إلى موت كثيرين، ووصل إلى روما، وبعدما اجتاز ماوراء حدودها، ذهب ليجد البابا الاسكندر—الذي كان آنذاك حياً— في أناغني Anagni ووجد هناك في البلاط نواباً للملك الشاب مضادين له، ويفعلون كل ما يستطيعون لتسويد صورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألة: موافقة من على الانتخابات والاجراءات التي أعقبتها ستفضل؟ أهى موافقة الملك الكبير أم الملك الشاب؟ واستغرق النقاش حولها وقتاً وبحث فيها باستمرار، وبدا أنه تم التوصل إلى حل عادل لها، ثم أثرت شكوك كبيرة حول ولادته، وهنا أقسم عدد كبير من الرجال العقلاء، الذين توفر عدد كبير منهم إلى جانب رئيس الأساقفة، على الأناجيل، أنهم لم يسمعوا لاقبل الانتخاب ولاخلاله أكثر من أنه تم الحمل به وولادته على فراش زواج شرعي، وبعد هذا جرى في ٢ نيسان تأكيد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بارونات انكلترا، احتشدوا هناك يوم ٣ أيلول، لكن بسبب أن السعادة غالباً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلته بسعادة حتى دمرت —بالأسف— كاتدرائية كانتربري بالنار يوم ٥ أيلول.

وجرت دعوة أعيان الكنائس الشاغرة للاجتماع بغية انتخاب أساقفة لأنفسهم، وبما أن مندوبي الملك الشاب قد أخبروا البابا بأشياء كثيرة حول الأسقف المنتخب لكنيسة إيلاي Ely وخشية من الاساءة إلى سمعته وتشويهاها بين الناس الطيبين، أقسم في احتفال مهيب جرى في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر أنه بريء من موت رئيس الأساقفة توماس، وأنه لم يعرف شيئاً عن الموضوع ولم يشارك به لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعد سيامته مع أية امرأة.

رفض هنري الملك الكبير الطغيان بقلبه وروحه، وعدّ من واجبات الجلالة الملكية ابعاد رعاياه عن الجولان حول البلاد، لسلب الفقير، وايداء الأرامل واليتامى، واغتصاب العذارى، واهتم بشكل خاص بمنعهم عن سفك الدماء، فضلاً عن هذا لقد عرف أن التذلل غير الاعتيادي الذي أبداه الفرنسيون والفلمنكيون ورغبتهم في صنع سلام بينه شخصياً وبين أولاده صادر عن عجزهم عن مقاومته، وكان سيتجنب الفرنسيين حتى عندما يحملون الهدايا، مالم يكن قد أغري بأي نوع من الاذلال والتحالف مع أعداء من هذا النوع، من خلال رؤيته المستقبلية بإمكانية استدعاء أولاده —الذين كاد كل واحد منهم أن يظن أنهم ضلوا بالفعل— إلى ثمار حياة أفضل، أولاده الذين أحبهم كثيراً، والذين جعل منهم سادة لكثير من الأمم، والذين لم يتوقف قط عن محاولة رفعهم إلى أعلى مراتب الشرف، حتى يكبحوا الناس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، ومحق أعدائه.

وبما أن أعداءه كانوا يتفوهون كلام سلام، وأرادوا التباحث معه، ذهب لمقابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تور وأمبويس **Amboise**

والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطي ابني الأكبر هنري خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كل سنة مع قلعتين في نورماندي حسب رغبتني، ولسوف أعطي رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لا يستطيع منهما إلحاق الأذى بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إن ملك اسكوتلندا مع إيرلي ليستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يمررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إلي جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لذي هزيمته لأعدائه تسعمائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد اعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم الذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسبوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء إطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤ تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الدير والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلاً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم ٨ كانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك Berwick إلى رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الثاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيدة من لامانس، وعرف داود أمير شمالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك اعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

## سنة خمس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١١ كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبما تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، الذين أبعدهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا إزالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم انيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الخالية لم تكن المملكة كبيرة بما فيه الكفاية لاستيعابهما، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم ٩ أيار، ولقد أكلا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافهما في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتها معاً بالتساوي أثناء حجها إلى كانتبري، يوم ٢٨ أيار، ولقد اعتنى بهما بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين Fon-taines في حالة زنا مع زوجته الكونتيسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢ آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماه مع بعضهما، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكان جون عميد سالسبري قد دعي إلى تسلم الأسقفية في آينشام Eynsham يوم ٢٦ تشرين الثاني، فاستلم حكم كنيسة شرق أنغليا Anglia بموافقة الشعب من نوروك Norwick وبرضا الملك، ومباركة رئيس الأساقفة، وبموجب سلطات الكاردينال، وتمت سيامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤ كانون الأول.

وحول الملك الكبير نظراته نحو حاجيات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديوناً هائلة، فقد تم الاعتراف بكل ما أخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلك خلال السنوات الثلاث التي مضت، وعندما دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

### سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بناء على نصيحة ابنه، وموافقة أساقفته، والإيرلات والبارونات، والفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا حضوراً، قضية، ثلاثة لكل واحدة من مناطق المملكة الستة، وقد أقسموا على توفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦ كانون الثاني في نورثامبتون.

وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيوج بيرليوني Pierleoni اجتمع رجال الدين لجميع انكلترا في لندن يوم ١٤ آذار، ووقف رئيس أساقفة يورك ضد رئيس أساقفة كانتربري، مدعياً أن البابا غريغوري

الكبير قال: «ليكن هناك تمييزاً في المكانة بين أسقفي لندن ويورك تبعاً لدرجة قدم السيامة»، وطالب بتطبيق ذلك على كانتربري ويورك، واستمر يقول إنه بحكم سيامته ينبغي أن يجلس على يمين الكاردينال، ومن جانب آخر قال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة امتلكت الرتبة والتقدم والرفعة تماشياً مع أوضاع الآباء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيازات البابوية، لذلك ادعت دوماً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمرار الأسقفين في عملهما الغبي هذا، جلس في يوم الثلاثاء التالي الكاردينال في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينال، حتى انفجر قتال فيما حول المكان، وازداد الاضطراب والشجار سوءاً، وارتفعت الأصوات، وتعاضم التهديد، وجرى ضرب بعض الناس، فغادر الكاردينال مسرعاً جداً، وجرت مهاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللوم على تسبب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هناك اتهامات ودعاوى من كلا الجانبين، وجرى اهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينال إلى رجال الدين والشعب في الساحة الداخلية لوستمنستر، وطالب بالسماح له بالانسحاب والمغادرة، لكن جرت تهدئته بعد ذلك برجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البابا الاسكندر

رغبة في حفظ التمجيد الكلي لكنيسة يورك، وسيراً على خطى أسلافنا، أصحاب الذكرى السعيدة الأحبار: كاليكستوس، وأونوريوس، وانوسنت ويوجينيوس، وبموجب السلطات الرسولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتربري انتزاع أي اختصاص من يورك، ونحظر أيضاً الشيء نفسه على رئيس أساقفة يورك، كما لا يجوز أن تكون يورك خاضعة لكانتربري، وذلك توافقاً مع الحظر الصادر عن القديس غريغوري، بل عوضاً عن ذلك إن التمييز بالمكانة ينبغي أن يحفظ بينهما، على أساس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً.

وكانت مقاطعات الحدود العائدة لكل من آنجو ومين تعاني من نقص الخبز، وأمن هنري الثاني مايكفي لطعام عشرة آلاف من الناس كل يوم اعتباراً من انيسان حتى بات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبناء على الأمر الملكي جرى توزيع كل ماكان محفوظاً لاستخدامات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمر أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين Vulgrin كونت أنغوليم Angouleme عصابة من البرابانكونيين الأشرار، وتجراً على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل جون أسقف بواتو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً من المرتزقة الذين توحدوا مع ثيوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكويتين —الذين كان آنذاك في انكلترا مع أبيه الملك— لانقاذ الشعب الذين أوكل إليه أمر حمايته، من أيدي أعدائه، وانقسموا إلى ثلاث فرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خربوا القلاع، وأفرغوا الحقول من سكانها، وأحرقوا الكنائس، ومارسو الطغيان على الراهبات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليها القلاع وأحرقوا فيها، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلوا عن معداتهم وتركوها غنيمة، وعلى هذا تمت حماية أهل بواتو لافضل السيوف والخوذات بقدر ماكان ذلك بفضل العناية الربانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعة من عددهم فقط، وهكذا جاءت السلامة على أيدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لايفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى ارسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداوات، وكان ذلك يوم ٢٠ أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقلية فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدهما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمنيته برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧ آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم الذهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جايل، في يوم ٩ تشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك - Nor-wick حسبها كان قد وعد في بلرم يوم ٩ آب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطيرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بالانشقاق، وكانت المنطقة الجنوبية التي كان بإمكانه العبور منها، متأثرة بشكل حاد بالمجاعة، وكان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانات، وتألّم الأسقف أثناء سفره خلال أوفرن Auvergne من عويل الناس الذين كانوا مرميين في الشوارع، وقد تورموا من الجوع، وكان مايزال بحالة صحية جيدة عندما دخل إلى مدينة فالانس Va-lence غير أنه تساءل عن أمانة مضيفيه، فلقد امتلأت الفرش بالحشرات، التي سببت عدم نومه ليلال، واجتاز الأسقف بلاد امبرون Embrun وتجنب منطقة جبل جنفري Genevre ووصل إلى الحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian.

ومن هناك، وبسبب وعورة المنطقة، اعتمد على عدد من السفن المتنوعة، والخفيفة والسريعة، وفضل مراكب التجديف واعتمد عليها أكثر من اعتماده على السفن الشراعية، وقد عبر دوقية أبوليا، وإمارة كابوا Capua ورؤوس كاليريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخاطر المعروفة أيضاً للناس الذين أبحروا إلى ايطاليا بعد سقوط طروادة، وتجنب الأسقف رأس بالينوروس Palinurus وصخور سيلا Scylla ودوامة تشاربيدز Charybdis مع شيء من الخوف، وكانت لحظات رهيبة لدى التفكير أن أعماق البحار الهائجة يمكن أن تبتلع الانسان بلحظة، وهكذا حكم على الرحلة بقلة الراحة، وبدوام القلق، فلقد كان التهديد من امكانية هجمات القراصنة يمكن أن يرعب أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيها المجدفين، فقد تأثرت أجهزتهم الحيوية بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنواع المخاطر التي يواجهها الناس في الخارج [وذلك بين جميع مشاكلهم الأخرى] عندما كانت أوراق الأشجار في صقلية مع براعم الكرمة والقصب في المستنقعات كانت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقد كان الوقت آنذاك هو منتصف آب، وعندما كانوا على وشك الإرساء، كان مركبهم صغيراً بالكاد يمكنه استيعاب ثمانية رجال، وقد غمرتهم مياه الأمواج، وكانوا يائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد ناموا مرغمين تحت السماء المكشوفة لعدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصماء عوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيار منحهم استخدام الرمال، وعلمتهم الحياة أن يحشوا فرشهم بالحصباء.

وبعدما أمضى الأسقف عدداً كبيراً من الأيام في هذا النوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهناك التقى بثلاثة من أصحابه الرسل، وتسلم في خلال أيام قليلة اجابة مرضية من الملك الصقلي، ولو أنه امتلك الوقت لسأل فيما إذا كانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الثلاثة أو بسبب شكلها المثلثي، لكنه كان يمضي خريفاً غير منتظم، وفقد اثنان من المرافقين الذين ورد ذكرهم أعلاه حياتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثالث بحمى شديدة ألزمته الفراش، وهكذا عاد الأسقف لوحده إلى انكلترا، بعد بعثة ناجحة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

### سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألفت مدينة بلرم وقتذاك باحتفالات زواج ملك صقلية من ابنة ملك انكلترا، وتدفق رؤساء الأساقفة والأساقفة والكونتات والبارونات ورجال الدين والشعب في لحظة واحدة ليباركوا الزواج وليشهدوا تتويج الملكة الجديدة، وقام وولتر رئيس أساقفة بلرم باتمام مراسم الزواج في ١٣ شباط.

وتوجه الملك هنري إلى فرنسا يوم ١٨ آب، وذلك بعدما تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغبته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كل إنسان أننا، وعدنا بكل وقار، بإلهام من الرب، أن نحمل الصليب ونذهب إلى القدس، ونرغب أيضاً أن يعرف كل إنسان أننا منذ الآن ودوماً نريد أن نكون أصدقاء، وأن كل واحد منا على استعداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوتي من قوة، وإذا ما حاول إنسان أن يؤذي أي واحد منا، فإنني أنا هنري سوف أقسم على حماية مولاي لويس ملك فرنسا ضد جميع الناس بقدر ما أوتيت من قوة، وأقسم أنا لويس على حماية هنري ملك انكلترا ضد جميع الناس بقدر ما أوتيت من قوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ماداموا مخلصين لنا. وأبرم هذا في نونانكورت يوم ٢٥ أيلول».

وأخضع صلاح الدين، وهو مُعذب بوحشية لاسم المسيحية، مصر وسورية، واستولى بالقوة على بابلين ودمشق، وعندما جمع كونت أوف فلاندرز ووليم إيرل دي ماندفيل قوة كبيرة من سكان القدس لمهاجمة حارم Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصراً حماه Hareng يوم ٤ تشرين الثاني، وكان يوم عيد، واعتقد صلاح الدين، الذي حقق المكانة السامية بقوة السلاح لابقوة الأصل والنبالة، أن مدينة القدس المقدسة كانت شاغرة من المحاربين، على هذا حشد جيشاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الرملة، وقام ملك القدس والبطريك وجيش صغير من فرسان الداوية والاستبارية بقي معها، مع عدد قليل من المقاتلين، بإعداد أنفسهم بسرعة للحرب، معتمدين لأعلى السيف والرمح، والقوس والنشاب بل على عون الدين فقط، ولقد سلحوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموها على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الريح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينما اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدا لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة ايجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عبأوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقي الهجمات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينما كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينما باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية — مثله مثل يهوذا المكابي — أربعة وثمانين من فرسانه معه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموا بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعوا الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيف، قرر هو نفسه اللجوء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقاله، وتسلق ظهر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين»، وهكذا ربح المسيحيون يوم ٢٥ تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩ تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة.

وجاءت في يوم اكانون أول ريح عالية من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

### سنة ثمان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقيل.

وكان على الساحل أعمال ترايبية كبيرة مشكلة من المروج، وقد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لاسيما من الشمال، وفي ٨ كانون الثاني جرفت الرياح العاتية من الشمال السكان، والمواشي، والقطعان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فرنسا والقنال الانكليزي، وبعدهما رتب كل شيء حسبما رغب، عاد إلى انكلترا في يوم ١٥ تموز، وإثر عودته زار قبر توماس الشهيد الراحل.

وذهب وليم رئيس أساقفة ريمز Reims إلى كانتربري يسوم ٢٧ تموز مع مرافقة كبيرة، وكان قصده الوفاء بالندور التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، إلى توماس الشهيد الراحل، وجاء ملك انكلترا، مع عدد من الأساقفة والعديد من النبلاء لملاقاته، وتم استقباله بحفاوة عظيمة، وقد أمضى ثلاثة أيام في قصر الملك في لندن، على حساب المملكة، وعندما بعث الملك إليه هدايا ضيافة تألفت من عدد من آنية الزينة الثمينة، تمنع عن لمس أي منها، وذلك خلافاً لعادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هدية، بل كدليل محبة من الملك.

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في  
وودستوك Woodstock يوم ٩ آب.  
وفي يوم ١٣ أيلول كان هناك كسوف للشمس.

### سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات  
في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينها كان مندفعاً يجول حول جميع  
أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس،  
وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً،  
وكان الملك الكبير مستوراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب  
بها، ومع أن الملك الشاب كان ما يزال دون السن القانونية، أعاد والده  
إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال  
الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت -Wiss-  
ant وقد استقبل بحفاوة لائقة به من قبل أبيه الملك، في يوم ٢٦ شباط.

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة  
لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد  
الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيما بين ابنة شارلمان والامبراطور  
قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد  
أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة  
سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكويتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح،  
فجمع قوة وحاصر يوم ١ أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرفات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونما هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجيء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كل شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، والقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت خلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كل شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كرمه، وكان قد فرّج عن القديس توماس أثناء وجوده في المنفى، والقديس توماس هو رئيس أساقفة كانتبري السالف، وقد عاش لسنوات عديدة في فرنسا، وتلقى من الملك الفرنسي كثيراً من الألفاظ بما توافق مع أخلاقه، وأمل في أن يظهر طاعته للرب بمعاملة رئيس الأساقفة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكايات عن معجزاته في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكة الفانية إلى المملكة السرمدية، ولم يتقدم له أو لواحد من أجداده، في أي وقت من الأوقات سواء أكان ذلك في السلم أو في الحرب، زيارة انكلترا، واتخذ لويس لنفسه ثياب حاج واسمه، واصطحب معه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقام بزيارته بكل تقوى وإخلاص.

وما ان سمع هنري الثاني ملك الانكليز وأبوههم، بقرب وصوله حتى بادروا إلى التوجه لاستقباله، وسار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٢ آب، وقدم إليه كل حفاوة ممكنة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرها رئيس الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الدين والشعب، وتمت يوم ٢٣ آب، كما وكانت هناك تراتيل وأناشيد وسرور عظيم احتفالاً بوصول شخص عظيم مثل هذا الأمير، وأنا لأعرف كم من الفضة الفرنسية والذهب قد أعطى بمثابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمرة، لصالحه ولصالح ورثته، تقدم بشكل دائم احتراماً للشهيد، وكانت هذه الخمرة مكرسة لتستخدم من قبل رهبان كانتبري، ونحن نحیی ذكراه، وخشية أن يظهر الفرنسيون أنهم يبتغون أي شيء سوى الشهيد، فقد منعوا أيديهم من الامتداد إلى خزانة أموال الشهيد، وهو شيء ربما كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في كانتبري في صيام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦ آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوغ أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس **Grande Char-treuse** قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوغ من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام ١١٧٧، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوغ إلى هناك.

أسس هيوغ أخوانيته في دوثنان **Dothan** التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ما أصبحه المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوغ الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كل شيء، لابل كل شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات اخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الاخوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليتمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها لهؤلاء الذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالممكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبادىء ذي بدء عقد هيوج اجتماعاً مع الذين لديهم ممتلكات أو أشياء أخرى سوف يتخلون عنها لأن الأصوات ومجىء الزوار بشكل متواصل سوف يخرب، أو على الأقل سوف يسبب الاضطراب لخلوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفويض من الملك عرض عليهم واحداً من اختياريين، إما: أن يعطوا حقولاً وأماكن للسكنى من النمط نفسه الموجود في ويتهام أو أي عزبة ملكية يختارونها، أو أن يتم تحريرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقررًا مزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

«والآن عليك يامولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالوا تعويضات مالية من أجل بيوتهم، ومقابل كل نوع من أنواع الأتعاب التي أنفقوها على ممتلكاتهم وأبنيتهم من كل نوع، وإلا فإنني لأستطيع قبول هذا المكان»، وهكذا أرغم الملك على أن يشتري بأثمان مرتفعة أشياء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدامة، وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الدفع للباعة، كانوا مسرورين تماماً تجاه هذا الأسلوب الجديد من الشراء، الذي أغناهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كل حال لم يكن رجل الأعمال راضياً بالصفقة، التي بدت له عادلة لكن غير كريمة، ولهذا تكلم ثانية إلى الملك وهو يتسّم: «انظر يامولاي الملك، كيف تمكنت أنا الفقير الغريب من اغنائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لدى سماعه هذا وأجابه قائلاً: «إنني لأرغب بتسلم هذا النوع من الغنى، الذي جعلني تقريباً معدماً، كما انني لأعرف أي انسان يمكن أن تكون هذه الأشياء ذات نفع له»، فقال له: «عظيم جداً، أرى أنك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيه رأسي» ووجد الملك نفسه غير قادر على الاجابة، وحقق مندهشاً بالسائل، ثم قال مجيباً له: «إنك راع غير اعتيادي، هل تعتقد حقيقة انني غير قادر على أن أبني لك أبنية جديدة؟ أخبرني على الأقل ماأنت مقبل على عمله بهؤلاء؟ فأجاب هيوج قائلاً: «إنه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبما أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً»؟.

وشعر الملك، الذي امتلك حسّ الدعابة، بالسرور الكامل تجاه سرعة بديته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

«هل يمكن أن يكون هناك انسان على أرض غريبة يمثل هذه الجرأة؟ ماالذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضته، طالما لسانه يمثل هذا العنف، ومن أجل الأنعاني من الأسوأ، دعوه يأخذ الذي أراد»، وعندها أعاد هيوج الأبنية التي كان قد تسلمها إلى أصحابها القدماء، مع أنهم كانوا قد تسلموا أثانها، وقام الملاك إما بيعها مرة ثانية، أو بنقلها ليعيشوا فيها في مكان آخر، وهكذا تبين أنه: موهوب بالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليمان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندما اكتمل تشييد الأبنية التي تطلبتها عادات الاخوانية، وأصبح عدد الاخوان تاماً، ركز الراعي الجيد جهوده على تدريب النفوس التي أسند إليه أمر رعايتها في مجال الاحتراف المقدس، وصرف الكثير من الوقت والجهد في سبيل تصنيع وشراء، والحصول على المخطوطات الدينية بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطوطات كانت عوناً كبيراً له في مهمته.

وفي إحدى المرات كان يتحدث مع الملك فورد ذكر قلة الكتب،

وعندما وجهت إليه النصيحة في أن يبذل جهده في الحصول على المطلوب ونسخها بوساطة نساخ مخلصين، أجاب أنه لا يملك الرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد عليّ أن أدفعه لك لتدارك هذا النقص؟» فأجابه: «إن قطعة نقدية فضية واحدة ستكون كافية لوقت طويل»، وعندها ابتسم الملك وقال: «ما أثقل هذه المطالب التي طلبتها منا»، ثم أمر على الفور بإعطائه عشر قطع تسلّم إلى الراهب الذي كان مرافقاً له، ووعدّه كذلك بأن يرسل إليه نسخة من الكتاب المقدس تحتوي على العهدين، وعاد الراعي إلى بيته، غير أن الملك لم ينس وعده، وحاول جاهداً أن يجد نسخة فخمة حقاً من الكتاب المقدس، وبعد جهود حثيثة وبحث نشيط، بلغه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قد صنعوا حديثاً نسخة ممتازة من التوراة نسخت بشكل جميل، استخدمت للقراءة في غرفة طعام الدير، وقد سر كثيراً بهذا الاكتشاف، واستدعى على الفور راعي الدير، وسأله إعطائه الهدية التي صنعها وتسليمها له، واعدأ إياه بجائزة قيمة، واستجيب لطلبه بكل سرعة، وعندما تسلّم راعي دير ويتهام ورهبانه نسخة الكتاب المقدس وتفحصوها كانوا مسرورين بها كثيراً، وأعجبهم صحة النص كثيراً، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتاب المقدس الجديدة والجميلة من دير، أعاد هيوج على أنبور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبان ونشستر من غضب الملك، وكان هيوج على كلّ حال فادراً على التعامل مع الغضب الأنجيفي لهنري، وتظهر القصة التالية كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحرار الملكية.

وعندما بات تصرف الأسقف الجديد لدير لنكولن معروفاً في البلاط،

بذل عدد من الناس جهودهم لزيادة تأجيج غضب الملك ضد هيوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسود للرجل لاحسانك غير العادي نحوه واضح الآن تماماً، والجائزة التي تلقيتها مقابل ما بذلته من جهد في سبيل تقدمه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأناة وذلك على الرغم من غضبه، وأرسل من استدعى الأسقف، وعندما عرف أنه قرب وصوله، ركب فرسه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضاً في بقعة جميلة، وشكل الإبرلات والبارونات حلقة من حوله، وأمر هؤلاء بعدم الوقوف أو تحية الأسقف عندما يصل، ولكي نجعل القصة الطويلة قصيرة، جاء الأسقف وقدم التحية للملك وللجماعة، لكن ما من واحد ردّ عليه تحيته، وعندما رأهم جالسين هناك صامتين وغير عابتين، جاء ووضع يده بلطف على كتف أحد الإبرلات الذي كان يجلس إلى جانب الملك، وجعله يعطه مكانه إلى جانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كل واحد منهم وقتاً طويلاً.

وأخيراً رفع الملك رأسه وأمر واحداً من خدمه بإعطائه إبرة وخيطاً، وبعدما تسلمها بدأ بنفسه يخيّط رباطاً وضعه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وساد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الوقت لكي ينجب الاحراج في صنع لاشيء، ولقد اعتاد الناس الغضابي على التصرف وفق هذه الطريقة، لأن غضبهم ألزمهم بالصمت، ولا يمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسقف إلى ما يجري، ولاحظ أن مظاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هذا الصراع للعواطف الانسانية وكأنه واقف من أعلى برج للمراقبة وللتحليل العقلي، والتفت أخيراً نحو الملك وقال: «كم تشبه

أبناء خالكم في فالاسي Falaise » ، ونفذ هذا التعليق الذي قاله بلطف وصوت منخفض إلى أعماق الملك، فضغط على أصابعه وأخذ يضحك دون أن يسيطر على نفسه، واستلقى على الأرض لوقت طويل دون أن يتمكن من كبح سروره، واندهش الناس الذين فهموا العبارة اللاذعة تمام الاندهاش واحتاروا كيف أمكن لرجل في وضع هيوج أن يتجرأ بالمزاح في حضرة ملك جبار في مثل تلك اللحظة، وعلى كل حال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسام، وانتظروا بعض الوقت ليسمعوا رد الملك، وكان معظمهم غير فاهم لمعاني ما قاله هيوج، وكانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجيء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لذلك سوف أشرح: كان من المعروف أن أم جدنا العظيم وليم فاتح هذه الأرض، كانت من أصل وضع، وأنها جاءت من فالاسي وهي بلدة نورمانية هامة، مشهورة بصناعة الجلديات، فلقد رأيت هذا المزوح أحيط أصابعي ولهذا أطرائني لمشابهي أخوالي في فالاسي» .

ثم قال مخاطباً الأسقف : « والآن أخبرني أيها الصديق الطيب ، لماذا رأيت من المناسب دون اخباري، القيام بحرمان رئيس أحراجي، ولماذا عاملت طلباتي التافهة منك بمثل هذا الاستخفاف، حيث لم تقدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا؟» وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

«إنني أعلم أنك عملت بجد لتجعلني أسقفاً، ولهذا إنني مكرس لانتقاد روحك من المخاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حريص على تأدية واجبي الصريح نحو الكنيسة التي عهد بها إليّ، وإنه لمن الضروري حرمان المعتدي على كنيسة والظالم لها، وأكثر من هذا القيام برفض كل

من يحاول أن يتملك بشكل غير شرعي شيئاً من أوقاف تلك الكنيسة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصال بسموك، لأنك عاقل تماماً وقادر على ملاحظة ماهو صحيح، ومن المؤكد أنك ترغب في اظهار موافقتك على ماتعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هذا التوضيح، والآن وقد زالت آخر آثار غضبه المتسرع، عانق الأسقف بوجه مشرق، وعهد بنفسه لصلواته بشكل ملح، وترك له حرية القرار بشأن مسألة تحليل الرجل المحروم، الذي اعتذر وتذلل كثيراً، وأقسم يميناً حسب الصيغة التي وضعتها الكنيسة، وبعدها جلد مع شركائه، جرى تحليله، ومنحه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقدم ديسيتو وصفاً لطريقة تفكير هنري الثاني الفجة العادلة في تغييراته القضائية في انكلترا(١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنري الثاني، ملك الانكليز في هذه الأيام صنع أشياء كثيرة كانت صعبة التحقيق، فقد وجد العمال لا يرغبون في ممارسة الأعمال العامة، ولا يهتمون بواجباتهم، ويصرفون اهتمامهم نحو شؤونهم الذاتية، وبات قلقاً أكثر فأكثر تجاه الصالح العام، وهكذا عهد بشؤون القضاء في بعض الأماكن لرجال آخرين أمناء، وعلى هذا توجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجرمين والذين يستولون على الأموال ويسئون إلى الجلالة الملكية، فهؤلاء يستحقون الغضب الملكي، وستنزل العقوبات بالذين يسارعون لاصطياد الحيوانات المتوحشة بالتغريم وبالسجن الطويل، ويتوجب أن تقمع عقوبات المجرمين، وينبغي أن ينال الذين يلقي القبض عليهم عقوبات ثقيلة، ويجب معاقبة القاتل بشنقه، والخائن بإدانته ونفيه، أما الذين ألقى القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتماماً كبيراً باظهار العدالة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيد من الحماية لرعيته، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقات الناس، وشهد الحصول على الرجال الذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجال الذين لا تفسدهم الأموال، لأن عرضاً مالياً يمكن أن يغير عقل انسان ما، ومع الناس المتغيرين يمكن تبديل الأحكام التي لا يجوز تبديلها، وقام رجال الدين بالتفريغ عن شكاوى الفقراء، كما قاوم الفرسان المخولين بالسلطة الناس الذين كانوا أكثر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عين رعاة ديرة جدد، وإيرلات جدد، وقادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقرب الناس إليه وكلفهم بالاستماع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيراً من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدهم يضررون بالرفاه العام، وبما أن أيا منهم لم يعد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيه وسيلة لمساعدة أفراد الشعب، قرر أنه يستطيع أن يفرز بعض الرجال عن المجموع العام، رجال مع أنهم كانوا يعيشون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانوا ممن شعر وجرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حوّل كل شيء كان عرضه للتغيير ونقله إلى الكنيسة، وعيّن أساقفة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مشرفين رئيسيين على العدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معتقداً أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراماً، فإن هؤلاء الأفراد من جهة أخرى كانوا أصعب عوداً، ويخشون الرب عن إيمان، الرب ملك الملوك، وخالق الناس، وهم سوف يحكمون اعتماداً على ضمائرهم، فينتقمون للآفاعيل، ولا يلتفتون

يمنة ولايسرة، وهم لن يظلموا الفقير في محكمة ليست فاسدة بقبولها الرشوة، ووقتها إذا ماتورط رجال الدين في قضايا غير دينية مضادة للقانون، وبسبب هذا استدرجوا للمساءلة، يمكنهم الاحتجاج أنهم قاموا بما قاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كانت تقوية، وأنه رغب في إرضاء الرب عن أعماله، وأن ينال ثناء الناس، وتقرر جلوس هؤلاء الأساقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضايا، لكن جرى الاحتفاظ ببعض القضايا للملك، وقد تقرر عرضها في وستمنستريوم ٢٧آب.

وكانت هذه السنة سنة جيدة: بعد مرور شتاء جاف، وبعد هبوب رياح شمالية في الربيع وبعدها عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطار خفيفة الحقول في ١٣ حزيران، فأنعشت نفوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغيرة، وتتابع هطول المطر والرزاز فأعاد الخصب، وساعدت الحرارة الصادرة عن أشعة الشمس على زيادة خصوبة الفواكه، وبشكل غير متوقع أعطت الأرض التي كانت من قبل جافة، مواسم عظيمة، وعلى هذا كان بإمكانك أن ترى في بعض الأماكن سبع سنابل على ساق واحدة، وعليك أن تتذكر أن شيئاً ما أو شيئاً آخر يحدث فجأة، بدون أمل، وبشكل غير اعتيادي، وربما يحدث هذا لك في أيامك.

وثانية أنزلت السماء نعمها ورحمتها على رعاياها وكذلك فعلت الطاقات والقوى الأرضية، وهكذا نجد أن كل إنسان كانت لديه قضية في محكمة مدنية أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكون خيرة بالعون الرباني، لأن المراسيم صدرت — كما قلنا من قبل — بتعيين أساقفة في المناطق بناء على أوامر من الملك، وأن يجلس هؤلاء للاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لا يملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمة المشكلة برئاسة رئيس أساقفة كانتربري، وأنت مطمئن تماماً في نفسك حول المشكلة التي ستعرض، ومن أجل عدم انحراف مساعديه الذين يقدمون له المشورة وكذلك الطاقم الذي يتولى الأمور الإجرائية، وابتعادهم عن جادة الصواب، ولكي لا يتم افسادهم بالمال لصالح الخصوم، أقسموا يميناً على الكتاب المقدس وفقاً للقانون المدني، وبما أن الجميع يتحملون مسؤولية عامة فقد أقسموا على الأناجيل أنهم لن يلوثوا مطلقاً أيديهم بالمال، وأنه ليس هناك استثناء لأحد، ووعد رئيس الأساقفة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً ما عبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقد أمضى حياته بالقيام بالغارات والهجمات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعدما جرى اتهامه من قبل كثيرين، وعندما كان مع الملك كان تحت حمايته، ولكن بسبب جرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢ أيلول، وقد أضر هذا السلطات الملكية ضرراً كبيراً، وهتك القانون العام الذي توجب أن تحفظ به المملكة سليمة، لأن كادوالون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمه، توجب حفظه احتراماً للملك الذي كان عائداً من بلاطه، ولأنه كان قد حصل على أمان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مامن أحد خاف من هذه الحادثة، ومامن شيء يشبهها قد حدث في أيامنا، لم يدعها الملك تذهب بدون عقوبة، فقد عاقب المعتدين بقسوة، فإذا مادعت إلى البلاط الملكي لا تحتاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن موت واحد من رجالهم كان معناه جنائز حزينة وبغيضة لكثير من النورمان والانكليز من سكان التخوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمة علنية، وأصدر أحكاماً قاسية قضت بشنق بعضهم على المشنقة، وبتدمير مقتنياتهم بعد مصادرتها، وأرغم آخرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس السابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعادة — كما كتب في الحوليات الفرنسية — نتج عن زواجه الثالث انجاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قد رزق من زواجه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعد طول انتظار، إنما بسعادة بولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديلا ابنة ثيوبولد العظيم، كونت بليوس، وقد أحب الشعب هذا المولود، وكان رجال الدين على استعداد لتقبله، وذهب فيليب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره إلى ريمس، وذلك بعدما التقى برؤساء أساقفة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقد كان بحاجة إلى موافقة هؤلاء تماشياً مع عادات المملكة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكاً على فرنسا، وجاء هذا بموجب حق الوراثة، وبرضى والده الذي كان أباً وحاكماً لجميع رعاياه، وجرى الرسم في ظل وقار جميع القديسين حتى يتولوا حمايته ضد أعدائه، وكان الذي تولى رسامته وليم رئيس أساقفة رايمس، وهو خال الملك، وفي أثناء هذا التتويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلاندرز أن يكون تابعه الشخصي الذي يحمل سيفه، ويعدّ الاحتفالات الملكية، وامتلك كونت فلاندرز حقاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنري، ابن هنري الثاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسا، هذا التتويج للدوابط الوشيحة التي تربطه بالمتوج، ولأنه

دعي لمشاهدة الاحتفال، ومع أن بريطانيا تستحق إلى أبعد الحدود أن ندعى عالما آخر، وغالبا مانسمع أن البريطانيين منقسمين بين أنفسهم، يبقى من الواضح أن مامن واحد من ملوك بريطانيا أو انكلترا اعترف بأن ملك فرنسا متغوف عليه، وهم بالحري اعتادوا أن يكونوا في الغالب أصدقاء، وقد قرروا في الرسائل المتبادلة فيما بينهم دعوة أحدهم الآخر بالأخ، وهذه عادة نحد حتى شارلمان قد راعاها بعدما جرى تنويجه امبراطورا للرومان، ولاحظ هنري الملك الشاب أنه حظي بتميز واهتمام أثناء الاحتفالات المهيبه، وقد مارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلق بالأحداث المستقبلية، واحتفظ الملك هنري الثاني بالتاج على رأس الملك الجديد، وذلك خشية من قول الذين قالوا إنه مازال شابا وأن التاج يجرحه، وأن هناك من هم أكثر لياقة بالقبام بهذا الواجب منه، فهو قد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعده، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد أثناء تنويج ملكهم.

### سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار، في ظل كل أمير جديد، لاسمها إذا ما كان ملكا شابا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطات خشية أن يتحول هذا لغير صالحه، لقد خشى من أن يقدم الذين يضسرون له السوء ويرغبون به إليه، فيقترحوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضارة بالنسبة لأراضي نورماندي، لأن الذين عاشوا قرب حدودها حافوا من قوة النورمان ومما يتمتع به اسمهم من جبروت، فهذا كان معروفا في جميع أنحاء العالم، وجرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بالعناية بهذه المسألة، فعبر الفنال يوم ٦ أيار، وأخذ معه سفيراً تابعاً وهو وولتر صاحب كاونتنس، وهو حافظ ختم الملك، وعندما وصلا إلى باريس وجدا الملك لويس طريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجال الدين في ليموغز Limoges سيراند Se-brand عميد كنيسة بواتو أسقفاً لهم، وجرى هذا دون الحصول على موافقة هنري الثاني ملك انكلترا، أو رتشارد دوق أكويتين، وكعقوبة لهذا السلوك المهين، تمت مصادرة ممتلكاتهم، وهدمت بيوتهم، واقتلعت كرومهم، وعندما سمع البابا الاسكندر بهذا، أرسل تعليماته إلى وارين رئيس أساقفة بورغز، ليتولى البحث في المسألة، وليسعى لايجاد تسوية، ومهما يكن الحال، عندما جاء رجال الدين من ليموغز إلى رئيس الأساقفة، وجدوه ميتاً، وهنا حتى لا يبدو أن جهودهم قد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة برايف Brive رسائل البابا، التي كانت ماتزال مختومة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مالم يمكنه انجازه أثناء حياته، دعوه ينجزه في موته»، وقالوا: إنه بهذه الوساطة البارعة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجاء الملك هنري الشاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسان، وقد استقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده، وأقسم في ردنغ بحضور الآثار المقدسة، أنه سوف يتبع جميع توجيهات والده في جميع المسائل، لاسيما في توزيع البلدات، والقلاع والمنافع حسبها هو وارد في مرسوم كان موجوداً هناك، وبعد هذا عبر الملك الكبير الفنال من بورتماوس، وعبر الملك الشاب من دوفر، واحتفل الملك الكبير لدى وصوله إلى فرنسا بعيد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت هينولت، التي كانت أمها مرغريت أخت كونت فلاندرز، وجرى العرس في لي ترونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لا ينسى، وقد حدث في يوم ٢٩ أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليمات من الملك، وعلى كل حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبها بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨ حزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر الاتفاق التالي نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جدنا بإيمان وأيمان المعاهدة والصدقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كل سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كل واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أخرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاترو Chateauroux والايجارات الصغيرة لأراضي بيري Berry وإذا ما احتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي حال إذا لم نكن نحن قادرين على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعتزف بصدق بما سيوصون به مهما كان، ونعد بإيمان وأيمان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨ حزيران فيما بين غيسور وتراي «Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكل فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زيتته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينيف Genevieve بإصدار تعليماته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣ أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبة سسترشيان Cistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١ تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحل محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائد الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كل حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

## سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قيل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وما هو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقترحات متتابعة أن يحدو حذو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذاهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢٨ تموز، وقام بزيارة كانتربري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسول إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لا قناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومدّ حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يقيم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ما هو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قوة استطاع حشدتها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني —ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم— متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ما أوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار، الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة واحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاعه وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خمسة آلاف آلة فلاحية مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبما أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعماله العدوانية، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعهما قواتهما، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعهما، اللذين —ثانية— كانت قواتهما قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شمالاً، فأرغما كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Creypt واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المشورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خططه، لجرى ارغام الكونت الذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام مايكفي لعدة أيام فقط.

### سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنثوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس **Senlis** بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن الممكن رؤية مااتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد **Pierrefords** إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثة أرملة هيوج أوف أوسي **Oisi** التي تملكها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أو في بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي **Chuci** تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينهما، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكيين بالخدمة لدي مقابل أجر أعطيهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضي في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا ماجءوا لخدمتي في أراضِيّ، ومادام قد عاد كلّ شيء إلى السلام، فالذين تخلّوا عن الولاء والتبعية لملك فرنسا، سوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينا كان روجر رئيس أساقفة يورك حياً، طلب من البابا الاسكندر الامتياز التالي:

إذا ما قام واحد من رجال الدين العاملين تحت ادارته بكتابة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاته بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يديه على مقتنيات الرجل الميت، وبما أنه يتوجب على كلّ من يصدر قرارات قانونية حول انسان آخر، أن يتبّه لنفسه، هكذا نفذ حكم الله العادل، فبعد وفاة رئيس الأساقفة جرت مصادرة كلّ شيء وجد في خزائنه، وبلغ هذا أحد عشر جنيهاً من فضة العملة القديمة، وثلاثمائة قطعة ذهبية، وطشت من الذهب، وسبعة طشوت من الفضة، وتسعة كؤوس من الفضة، وثلاثة طشوت من خشب القيقب، وثلاثة ممالح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضة، وثمانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنري دوق السكسون، وزوج ماتيلدا كبرى بنات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيس أساقفة كولون، وسبب له مضاراً كبيرة جداً، وحشد رئيس الأساقفة قوى من جميع المناطق من حوله، وقاوم الدوق برجولة، وتلقى العون والعناية من الامبراطور، وتطورت الأمور بشكل وصل إلى حد أنه عندما أعلن قرار جميع أمراء الامبراطورية، أرغم الدوق على الخضوع للنفي، فجاء إلى ختنه في نورماندي ومعه الدوقة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقي الرعاية والعناية والكرم الملكي.

## سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس Porphyrogenitus امبراطور القسطنطينية، متسماً في أنطاكية، مخلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر مخلفاً ولداً اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إليانور صاحبة أكوطين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبت أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسؤول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكل واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيا أجاب الموت البشري على كل إيماءة عملها الملك الكبير حول كل شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كل شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أخيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة —دوطة— لزوجته كونستانس، وكانت الابنة

الوحيدة والوريثة لكونت كونان Conan وكان كونتات بريتاني مرتبطين منذ قديم الزمان برباط الخضوع هذا لدوقات نورماندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثر، طلب بعد ذلك من ابنه هنري أن يتخلى لأخيه رتشارد عن دوقية أكويتين حتى يملكها رتشارد وورثته بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونات أكويتين ضد أخيه رتشارد، وأنه التجأ إلى هذا في الوقت الذي قام فيه رتشارد، ضد رغباته ومصالحه، بتحسين قلعة كليرفو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايزعج والده، أقسم بكل تأكيد على كلّ ما سأله والده، وكان ذلك في ميربو Mirebeau واشترط أن يقوم رتشارد بعدما يقدم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضباً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسها مثله مثل أخيه، لا يجوز بالنسبة له الاعتراف بأخيه الأكبر منه بالتفوق عليه مع نوع من الخضوع، لكن بحكم قانون المنفعة للأخ الأكبر الحق بالأشياء العائدة للأب، ثم ادعى حقاً مساوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندما سمع الملك الأب هذا انفجر غاضباً، وهدد بخلق المتاعب لرتشارد، وقال بصيغة توبيخ بأن الملك الشاب كان على وشك القيام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيوفري دوق بريتاني الوقوف باخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشاب السلاح ليس ضد والده، كما فعل ذلك مراراً، بل ليقدم العون

إلى البوتيفيين Poitevins الذين كان رتشارد يتولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهؤلاء البوتيفيون كانوا يقاتلون ليكونوا خاضعين له بموجب القانون العام، دون أن يكون أي واحد من أخوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثوا فيما بينهم، لكن عندما لم تظهر بارقة أمل بالسلام، جمع الملك الشاب جيشاً كبيراً، وترك والده الذي يعرف أن حكم أكويتين عائد إليه طوال حياته، وأمر جميع حلفائه حيثما كانوا وأينما كانوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حائك، وانقطعت معها آمال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حدث أنه في يوم ١١ حزيران، في منطقة تدعى تورين Tu- renne في غسكوني، بين أناس متخلفين تماماً في قلعة مارتل، توفي هنري الملك الشاب، بعدما عاش ثمان وعشرين سنة، وأربعة عشر أسبوعاً وستة أيام، تاركاً للرأي الحكيم الموافقة على أن الأبناء الذين يثورون ضد آبائهم، الذين يدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبما يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتوقع أن يصبحوا أغنياء، جديرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسد الملك الشاب بكل عناية، ولف بالأردية الكتانية التي لبسها وقت تنويجه، وحمل على أكتاف رفاقه خلال القرى والقلع والبلدات، والناس يهرعون من كل جانب للنظر، حتى وصلوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفة جوقة المرتلين في كنيسة القديس جوليان، وهرع أعيان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقة شعبية عامة جرى دفن جسد الملك هناك بسرعة، وذلك مثلما رقد جسد جده لأبيه في المكان نفسه، لكن نقل فيما بعد إلى روان بناء على طلب روبرت عميد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بالتوقيع اللائق بأمر إلى كاتدرائية روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

### سنة أربع وثمانين ومائة وألف

وبعدما رتب ملك الانكليز جميع المقاطعات التي تحت حكمه وفقاً لرغباته، وباتت جميع رعاياه تتمتع بمنح السلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خلال فلاندرز بأذن وترحاب من الملك الفرنسي وقدم في هذه الآونة دوق سكسوني مع بيته وحاشيته ومقتنياته إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجاء فيليب رئيس أساقفة كولون برفقة فيليب كونت فلاندرز في رحلته إلى انكلترا ليقدم الصلوات إلى القديس توماس في كانتربري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفة والكونت، وطلب منها السفر حتى لندن، وعندما وصلا استقبلا استقبالاً لانظيره، وكانت المدينة مليئة بالزينة، وكانت الشوارع مكتظة بحشود مسرورة، وجرى الترحيب بالزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائية القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك موكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكان الانفاق كبيراً، وقدمت في الموائد العظيمة أطعمة أكثر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفة خمسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتخف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانية سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هؤلاء الجنود عن الآخرين بالسيف الأحمر الذي كان شعارهم —رنكهم— وكانت قاعدتهم في اسبانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين.

ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

### سنة خمس وثمانين ومائة وألف

قام هرقل بطربرك القدس مع روجر مقدم بيت الاستبارية، برحلة إلى الغرب، وقد هتافوا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولا من ملك فرنسا، وعضواً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدموا إلى الملك في ردغ وقد شرحا الأسباب التي حدثت بهما للقيام برحلتها الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجماعة كلها، ودفعوا الملك وجميع الحضور إلى التنهد والدموع، ووضعوا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبآلامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتبري يوم ١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام نداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيس الأساقفة، ورجال كنيسة وأهل بيته وحاشيته وجزء كبير من المدينة، وجرى تهديم عدد كبير من القلاع وتعرض كثير من الناس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عندما كان جميع الناس نيام، وكان هناك زلزال في انكلترا أيضاً، في الشمال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم ١ أيار.

وزار ملك فرنسا ملك انكلترا الذي كان مريضاً في بيوفوير Beauvoir يوم ٩ تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

### سنة ست وثمانين ومائة وألف

في ٢٧ كانون الثاني توج رئيس أساقفة فينا فردريك امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان ذلك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمه وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكان الفرنسي والانكليزي، وكونت فلاندرز، وكونتيسة

شامبين، ومرغريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسور يوم ١٠ أيار، ونوقش الخلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦ نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١ نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملك هنري على قلاع أكوتين التي كانت على درجة عالية من الحصانة بفضل الطبيعة وبراعة الانسان، وأعطاهم للشحن التي أرادها، ومع أن رتشارد كونت بواتو كان مغضباً جداً لم يشتك لوالده، وهكذا مع تمتع انجو، وتورين، ومين، وبريتاني، ونورماندي، بالأمن والهدوء، عاد الملك إلى انكلترا، ونزل سعيداً في ثاوثامبتون يوم ٢٧ نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعد نزول الملك إلى اليايسة، زار أسقف ونشستر في مارول **Marwell** وأمضى الليل في ونشستر، وكان رئيس أساقفة كانتربري قادماً لرؤية الملك، وعندما سمع الملك بذلك بادر مسرعاً للقاء به، وأظهر له كل احترام يستحقه، وفي هذا المقام تجاوز تواضعه وماعتاد عليه أجداده، وجرى استقبال رئيس الأساقفة في موكب مهيب في ونشستر يوم ١ أيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨ آب، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، ودفن في شرفة جوقة المرتلين في نوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مرغريت أخت الملك فيليب، ملك فرنسا وأرملة هنري الملك الشاب، إلى باريس مع قطار كبير، وكان ذلك يوم ٢٤ آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبناء على أوامر من الملك اجتمع رتشارد عميد لنكولن ومعظم رجاله في آينشام يوم ٢٤ أيار، وبعد اجتماع طويل حول مشاكل كنيستهم، جرى انتخاب هيوج — وهو بيرغندي من غرونوبل، كان رئيساً لرهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا — أسقفاً للنكولن، وكان ذلك بحضور عدة أساقفة، وتم ارسال عدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيس رهبانية دير لى غراند تشارترو Chartreus الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١ أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

بحث آدم أوف آينشام في مسألة انتخاب أسقف لنكولن، وتتبع بوصف حي سياسته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثمانية عشرة سنة، وأدرك الملك ملامته تجاه أوضاعه المهملة، وأن شعوره المحزن يرجع بشكل واضح لعدم اهتمامه به، ولهذا قرر بذل مجهوده لتدارك واصلاح الفوضى التي نجمت عن طول الالهال، وذلك من خلال العناية باختيار راع نشيط.

وبما أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل:

إن كل واحد منهم رغب بانتخابه هو ولاأحد سواه، وحثهم عدد كبير من الناس ونصحوهم بمحاولة الحصول على هيوج راعي وإيتهم ليكون أسقفاً لهم، ذلك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنه، وقد أثنى كثير من القوم على قداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيته وتقواه إلى السموات، واتفق الجميع على أنه كان هو الشخص الوحيد الذي حوى الفضائل كلها مع أصالة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنه لايمكن إيجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقد وصف هذا من قبل جيرالد رئيس شامسة القديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلماته واقتباسها، فهاكم روايته:

«وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن عليّ عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم — أو قريباً منه — الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعيات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً، أبقته للصحة وليس بقصد الانجاب، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعيات مثلما تكون البجعة عادة أكبر من البطة، ولكنها شابهت في كل شيء آخر في لونها وبياضها بجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمتفخ، الذي يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من رقبتها.

وما إن وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجئ إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لا يعبأ بالأصوات الصادرة عن الحشود في كل مكان، ولا يهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبتَه

الطويلة في الفتحة الواسعة لكم قميصه، وهكذا ارتاح رأسه على الطيات الداخلية، وكان يمكث هكذا لبعض الوقت يتنفس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكر الموظفون ومساعدوهم الذين كانوا مسؤولين عن العزبة، أن الطائر كان يظهر نشاطاً عظيماً ليس معتاداً قبيل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجه النهر، ويضرب الماء بجناحيه، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً عالية، وكان يقوم من وقت إلى آخر بمغادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحبه لدى وصوله، ومن المتصور أنه كان مثله مثل طيور السماء حساس جداً بسبب طبائعهم الاحترافية، وكذلك هم يتوقعون وقوع تغييرات في عناصر الهواء أو حدوث حوادث قبل وقوعها، ويبدو ذلك من تصرفاتهم، ولعل هذا الطائر كان يعرف قرب وصول مولاه بالغريزة من استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنه كان على كل حال صديقاً وأليفاً مع واحد فقط هو الأسقف، وفي الحقيقة، أبقى كل إنسان، كما رأيت بنفسى، بعيداً عن مولاه، عندما كان معه، بالتصويت عليهم، أو بتهديدهم بجناحيه ومنقاره، كما كان ينطق بصوت مرتفع كما كانت عاداته مع البجعيات، وبدا كل ذلك وكأنه قرر أن يوضح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقف ذلك المكان في عيد الفصح الأخير الذي حل قبل رحيله من الأرض، لم يكتف الطائر بعدم القدوم لمقابلته كما هي العادة، بل إنه رفض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيها، حتى يجلب إليه، وكان مدهشاً لكل إنسان، أنه مكث فوق الماء ينظر بحزن وكأنه مريض، وكانت حركاته واهنة، وأخيراً أمر الأسقف أن يجلب إليه، أرضى أم لم يرض، ولمدة ثلاثة أيام حاول عدد كبير من الناس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهم بلائثار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النامية الكثيفة في منطقة نائية من البحيرة هناك حيث كان قد التجأ خوفاً من الامسك به، وعندما أحضر إلى الأسقف كان مدلى الرأس، وتنبعث منه رائحة التعاسة، وصورته صورة الحزن، وكانت واقعة غريبة أدهشت كل من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم ير ثانية من قبل صديقه الطائر، وعند ذلك لاحظ الذين تفكروا حول المسألة أن الأجواء الحزينة كان معناها أنه سيودع حزيناً قريباً مولاه لآخر مرة، ولقد عاش بعده، على كل حال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدي العظيم تجنّب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن عليّ أن أبين أنه كان أقل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصوله إلى مركز الأسقفية، مما اعتاد عليه من قبل، فهو لم يلمس اللحوم سواء في مرض أو في صحة، لكن كثيراً ما أكل السمك، ولم يتمنع عن الخمرة كلياً، بل شربها باعتدال لحاجات الجسد الضعيف وذلك حسبما نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كل شيء لكل الناس، وابتغى أيضاً أدباً وتيسيراً أن يجعل الذين كانوا يأكلون معه مرتاحين ولا يشعرون بالحرج، فقد كان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيوية، ولكن بالوقت نفسه كان حزيناً متحرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي جاء في سفر إستير وفيه: «جعلنا جمال القديسين مسرورين»، وإذا ما حدث أحياناً في الحفلات الكبرى سواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخر، وتكون هناك موسيقى أو تمثيل، كان يُظهر أعظم تمنع، فنادراً ما رفع عينيه من على الأرض، وأظهرت كل كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكان مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة. وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة، امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سداجتهم الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ ولا تمنعونهم فبهم ومعهم مملكة السموات»، وكان حيثما وجدهم، لاطفهم بمحبة وبحنان ملائكي، لا بل حتى عندما كانوا لا يستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة، واعتاد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مدهشة، حتى الذين بالعادة كانوا يخافون من كل إنسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبر عن سرور عظيم بتحريك أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية، واسترخى الفم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدأ أمراً لا يكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويبيكون أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومدّ نحو الخارج ذراعيه الصغيرين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله، ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم تابع لعقها عوضاً عن تقليلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان الحضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما مسرورين برفقة بعضهما، وأعطى الأسقف الطفل تفاحة وعدة أشياء أخرى يجيها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدأ أنه

مستغرق ومندهش بالأسقف، ودفع بشدة يدي الممرضة التي كانت تمسكه، وهدق بشدة نحو الأسقف وصفق بيديه وهو يتسهم طوال الوقت.

وعندما أبعد أخيراً، عبرت الجماعة عن دهشتها تجاه هذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبر عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيوغ في دير فيكامب Fecamp . الواسع الشهرة حصل بالعض على قطعتين صغيرتين من عظم ذراع مريم المجدلية، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحد هذا العظم قط وهو معرى مما لف به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المناسبة، لأنه كان محاطاً بإحكام بثلاث قطع أقمشة، اثنتان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجرأوا حتى على الموافقة على توصلات الأسقف لرؤيته، ومهما يكن الحال، أخذ الأسقف سكيناً من واحد من الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشف اللفائف، وبعدها تفحص العظم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولاً بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفور إلى الموثق قائلاً له: «اعتن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعي الدير والرهبان ما حدث، أصيبوا أولاً بالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ما هذا الاثم العظيم، لقد اعتقدنا أن الأسقف طلب أن يرى هذا الأثر المقدس والمبجل لأسباب تعبدية، فغرس أسنانه به وقضمه كأنه كلب!» وسكن غضبهم بكلمات ملطفة، وجزء من كلامه جدير

بالتسجيل، من ذلك قوله:

«إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جدارتي، وعندما تركته لمستته بشفتاي وأسناني، فلماذا يتوجب عليّ ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي»؟.

سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيا مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري الفنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينما كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبئان قواتهما ويسلحانها من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣ حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولداً ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

«يالأسف، مامن رسائل أو صوت نائح يمكنه أن يصف، أو أن يعدد المصائب التي أنزلها علينا غضب الرب، نتيجة لإثارته بذنوبنا، فلقد حشد الأتراك جيشاً كبيراً من شعبهم وغزوا المملكة المسيحية، وحشدنا نحن قواتنا، وزحفنا في يومي ٣ و٤ تموز وقاتلناهم، وتحركنا باتجاه طبرية التي استولوا عليها بالقوة، وذلك باستثناء القلعة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتى أن صليب الصلبوت تم الاستيلاء عليه، وقتل ملك القدس، وكذلك مقدمنا، ومعها جميع جيشنا تقريباً واخواننا، ونحن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذين قتلوا في الأول من أيار، وكان كونت طرابلس، واللورد أرنات صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونا من ذلك المعترك المأساوي، بكل صعوبة، ووصلنا من هناك ونحن ممرغون بالدم المسيحي.

وقد ذهبوا ومعهم جيشهم كله إلى عكا، ثم استولوا على مجمل المنطقة تقريباً، مبقيين القدس وعسقلان وصور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأماكن في المعركة، ومالم تصلنا المساعدات الربانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظة، وهم يقاتلوننا باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

### سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٢ كانون الثاني ملكا الفرنسيين والانكليز للتداول، وبعد نقاش طويل، كان الملك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أساقفة صور وروان، وبعد ذلك تناول الملك الفرنسي الصليب من رئيسي أساقفة صور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فلاندرز، والتحق به أيضاً عدد كبير، واتفقوا فيما بينهم على أن يرتدي الفرنسيون صلباناً حمراء، والانكليز صلباناً بيضاء، والذين هم من فلاندرز صلباناً خضراء، وبعدما حمل الملك الانكليزي الصليب أرسل محاسب بلاطه، ورتشارد باري Barre رئيس شامسة ليزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانزال العقوبة بمقتري هذه الجريمة، وقام وهو يتذكر أنه قد حمل الصليب، بالسماح لمن أراد من رجال غيوفري حمل الصليب، بفعل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمة للسيف، واستولى على عدد كبير من القلاع، وثبت غيوفري لاعتماده على القوة والمال، الذي — كما قيل — جاءه من الملك الانكليزي، وقاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بلاد غسكوني، وهاجم كونت طولوز، وتمكن خلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦ حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيما بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيمان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥ تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦ آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلاد فساداً حتى مانتى Mantes.

و في يوم ١٨ تشرين الثاني عقد اجتماع فيما بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعدده، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كل شيء استحوذ عليه منذ حملة الصليب، وأن يبقى بعد هذا كل شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده، لأنه بدا له من غير المناسب إعادة كويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضاً إعادة جميع المقاطعة وأشياء أخرى كثيرة في مملكته، تساوي ألف مارك أو أكثر كل سنة، من أجل ايجار تشاتورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفرنسي لتكون زوجة له، وطالب أن يقوم الملك هنري بتأكيد تملكه لأراضيه على أساس ولي عهد الملك ووريثه، وقد طالب بهذا كله من خلال الملك الفرنسي، ورد الملك الانكليزي أنه لن يفعل هذا، بسبب أنه سيبدو مسلوب الحرية مرغماً، وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كل ما يمتلكه والده مما يعود إلى المملكة الفرنسية، وذلك باستثناء أراضي أبيه مادام حياً، والاحتفاظ بالاخلاص الذي يدين به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣ كانون الثاني.

## سنة تسع وثمانين ومائة وألف

### رسالة أخبار من الشرق:

«هزم جيش صلاح الدين عند أنطاكية، وشرع أمير أنطاكية يركب يومياً ويسير بعيداً حتى حلب، واستولى أدميرال مرغريت على يافا، وقتل جميع الأتراك الذين كانوا هناك، وقتل خمسة آلاف منهم وأسر ثمانية أمراء، واستولى أيضاً على جبيل وقتل كل واحد هناك، وهاجم صاحب مِلا Mulla وهو واحد من مقدمي صلاح الدين، صلاح الدين، وهذا مافعله أيضاً صاحب ماردين، وقاتل الخليفة، صاحب

بغداد، الذي هو رئيس جميع الأتراك، صلاح الدين بقدر ما كان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنته إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطز(★) Kuteyez ابن صلاح الدين قتل زوجته، ابنة السلطان، ذلك أنه من المؤكد وبلا أدنى شك، كما يقول الجميع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مع اقتراب حلول يوم الفصح، سيسترد الفرنسيون أرض الميعاد، وسيربطون خيولهم في حدائق نخيل بغداد، وسينصبون خيامهم خلف الشجرة الجافة، سيفصلون البيقية عن القمح، وأنتم تعلمون بشكل مؤكد أنه قد توفر ممر في البوسفور.

وبات معروفاً بشكل واسع أن السلطان يكره امبراطور القسطنطينية، لأنه لم يدفع له الأربعمائة دينار ذهبي التي توجب عليه دفعها كل سنة منذ أن أصبح امبراطوراً، كما أنه لم يدفع له الثلاثمائة دينار الأخرى، وانتبهوا أيها الأخوة لماقاله لنا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيما عدا ذلك، يمكنني أن أخبركم أن كثيراً من الترك وقعوا بالأسر عند صور، إلى حد أن اثنين من الترك يمكن بيعهما بقطعة نقدية bezant واحدة، ويقال وضع صلاح الدين في سجنه رسولاً من يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك

---

★ — كذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الدين من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الدين ولد اسمه موسى، ولقبه قطب الدين، ولد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنة. شفاء القلوب للحنبلي — ط. بغداد ١٩٧٨ ص ١٩٦.

القدس، عندما سلمه كونت طرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحو أي واحد آخر كان هناك من ذوي المناصب، وعندما سلم صلاح الدين جميع كنائس الأرض المقدسة إلى رسل الامبراطور، وبناء عليه من الممكن أن تدار وفقاً لعادات الاغريق، وعليكم ألا تثقوا باغريقي حتى لو عاهدكم بيده، وإنكم لتعلمون أن صلاح الدين أرسل، بناء على موافقة الامبراطور وثنه [كذا] إلى القسطنطينية ليعبد بشكل علني هناك، لكن بنعمة من الرب تم الاستيلاء عليه في البحر من قبل الجنويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صور، وهناك الآن أبناء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيل بأن النبوءة التي أخبر بها اغريقي مسن من أسترالكس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتي أغضبت الاغريق سوف تتحقق الآن، وفيها أن اللاتين سوف يحكمون مدينة القسطنطينية وسيكونون سادتها، لأنه قد كتب على البوابة الذهبية التي لم تفتح منذ مائتي سنة انقضت، إنه: «عندما يأتي الملك صاحب الشعر الأحمر من الغرب، أنا سوف أفتح من قبل ذاتي»، وجرى تسميم آسان Asan ذلك الرجل الطيب، في ثيابه الامبراطورية، ووعد الامبراطور صلاح الدين بتقديم مائة شيني، وأعطاه صلاح الدين وعداً بجميع أرض الميعاد، إذا ماتولى الامبراطور منع وصول الملك الفرنسي، وأخبركم بصدق أنه إذا مالمس أي انسان صليب القسطنطينية سوف يعتقل على الفور ويلقى به في السجن، وإليكم على كل حال نبوءة فلكي تركي قالت:

إنه في ثلاث سنوات، سوف يموت ثلث الأتراك بحد السيف، وسوف يفر الثلث الثاني إلى ماوراء الشجرة الجافة، أما الثلث المتبقي فسوف يعمد، ولهذا نحن نعرف أن صلاح الدين في الحقيقة لم يعد

بإمكانه إيجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً من وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيه حامل هذه الرسالة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقولون إن جيش صلاح الدين قد جرى تدميره عند أنطاكية، وأن أخاه وابنه قد وقعا بالأسر، وفي اليوم الذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمون أنه بنعمة من الرب يوجد في مملكة قونية خمسة آلاف من الأرمن الجيدين مع خمسة وعشرين أميراً جاهزين للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيد الفصح المقبل مباحثات بين ملكي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونت بواتو، مرتين في لى فيرت برنارد - La Ferte Ber-nard لكن في النهاية، انسحب الطرفان بعد محادثات مطولة بمشابة أعداء.

تم وصف الأيام المأساوية الأخيرة من حكم هنري الثاني، ثم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعمال الملك هنري الثاني».

غادر فيليب ملك فرنسا واستولى على لى فيرت برنارد، وفي يوم الاثنين التالي، عندما بدا أن ملك انكلترا ورجاله قد غدوا على مسافة آمنة من النقطة القصوى لزحف الملك الفرنسي، أعد الملك الفرنسي جيشه وعبأ صفوفه للمعركة بهدف الهجوم على مدينة لامانس، وفعل هذا بعدما رأى مافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجو بإلقائه النار في الربض، لكن النار زاد التهاها ويات حجمها هائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلت المدينة نفسها طعمة للهب، ووقع عدد كبير من رجال جيش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الهرب،

وكانوا يرغبون بالتراجع إلى المدينة، وتمكن الفرنسيون من شق طريق معهم، ولدى رؤية ملك انكلترا ما يحدث خاف كثيراً على جماعته، فحث بوعوده، وهرب من المدينة مع سبعين فارساً، ذلك أنه كان قد وعد سكان المدينة أنه لن يتخلى عنهم في وقت المحنة، ومرد هذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قد ولد هناك، كما أنه أحب تلك المدينة أكثر من حبه لغيرها، وطارده الملك الفرنسي لمسافة ثلاثة أميال، ولولا أن نهر سارث Sarthe الذي توجب على الفرنسيين عبوره، لم يكن يجري بارتفاع عظيم، لتولوا مطاردة الفارين الآخرين بسرعة كانت ستتمكنهم، كما تؤكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كل حال جاء الملك الانكليزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كانت هناك، لكن بقية آل بيت الملك تراجعت إلى حصن قلعة لامانس، وعلى الفور حاصرها ملك فرنسا وهاجمها بالآلات حربه ورمياته، وبعد حصار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقدم في يوم الأحد التالي فيليب كونت فلاندرز، ووليم رئيس أساقفة ريمس وهيوغ دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصية منهم بدون رضا الملك، للسعي لإقامة تسوية بينهما، لكن ملك فرنسا كان قد أنذرهم قبل انطلاقهم في رحلتهم، أنه سيقوم رغماً عنه، بالإعداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتمّ يوم الاثنين التالي في الثالث من تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلع به من على ضفاف نهر اللوار، وذلك نتيجة لانخفاض مستوى مياه النهر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات— فأسندت من هناك السلام

على الأسوار، وكان في داخل المدينة ثمانين فارساً ومائة رجل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسه في جميع الأشياء والامور تحت رأي واردة فيليب ملك فرنسا، إلى حد أن كل ما أعده ملك فرنسا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء للملك فرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلم جميع ممالكه إلى ملك فرنسا، الذي كافأه في بداية هذه الهدنة.

ثانياً: قرر ملك فرنسا أن أخته أليس، التي يحتفظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتوضع تحت وصاية واحد من خمسة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أخته الأمان يمين رجال هذه البلاد، لتكون زوجة للكونت رتشارد إثر عودته من القدس، ولسوف يحصل الكونت رتشارد على تبعية رجال أراضي أبيه في هذا الجانب من القنال، وفي الذي يليه، وكذلك مامن واحد من البارونات أو الفرسان الذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحالية، والتحقوا بجانب الكونت رتشارد، سوف يعود في المستقبل إلى ملك انكلترا، فيما عدا الشهر الأخير قبل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكذلك سوف يحلل جميع سكان الممتلكات الملكية العائدة للملك انكلترا في جميع أراضي الملك الفرنسي بموجب عاداتهم القانونية ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جنائية اقترفوها.

وقد دفن في فونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاته، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه ملابس بهاء ملكي، وقد وضع التاج الذهبي على رأسه، وفي يديه قفازين، وخاتم ذهبي على أصبعه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتدياً حذاء مزركشاً بالذهب، وهناك مهازين على قدميه، متمنطقاً بسيفه، ووجهه غير مغطى، وعندما روي هذا لابنه الكونت رتشارد جاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولدى وصوله أخذ الدم يتدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحه تحركت سخطاً، وتبع الكونت المذكور موكب جسد والده وهو يبكي ويتنحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.